رشاد أبو شاور

الضحك .. فى آخر الليل

الكتاب : الضحك فى آخر الليل / قصص قصيرة
الكاتب : رشاد أبو شاور / كاتب من فلسطين
الطبعة : ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
أبورشاور ، رشاد
رشاد أبو شاور – الجيزة : وكالة الصحافة العربية.
تدمك : ١ – ٤٥ – ٥٧٧٢ – ٩٧٧-
رقم الإيداع / ١١٨٠٦ / ٢٠٠١

الضحك .. فى آخر اليل

الحكاية الحقيقة عن الوالد الذى رفض أن ..

هذه القصة حقيقية أى واقعية تماماً،لا خيال فيها ولا تأليف، احتفظت بها فى السر أشهراً كثيرة ، ولكن ولأن الأمر بات خطير اً ، فقد قررت أن انشر السر هذا حتى لاينتشر هذا الأمر ويعدى نساء أخريات ، يهدد مستقبلنا جميعاُ!

قد يقال : ولكن الرجل وزوجته ائتمناك على السر ، وأقول : هذا صحيح ، ولكن صمتى على هذا السر بدأ يقترب من الخيانة ، وكى يكون الأمر واضحاً فالذى يحكى معكم الآن ، وحيثما كنتم ليس مجرد راو يروى القصة كما درج بعض الكتاب على كتابة بعض قصصهم بهذا الأسلوب ، لا ، الأمر غير تماماً ، فالذى يكتب الآن ، هو الذى يعرف الير ويصر على نقله إليكم حيثما كنتم ، ومن أى بلد عربى كنتم أيضاً

أنا رشاد أبو شاور ، تعم ، الكاتب الذى قرأ له بعضكم ، والذى سمع به بعضكم ولم يقرأ له ، خاصة بسبب سوء توزيع الكتب فى الوطن العربى ، ومنع الكثير من الكتب ..إلخ "بعضكم لم يسمع به ، ولم يقرأ له"المهم عندى ، لتعد إلى موضوعنا أو كما يقولون إلى صلب الموضوع ، وكى لا يأخذ الامر طابع التشهير بالأبوين ، فأنا أذكر اسميهما كاملين، وعنوان لإقامتهما ، وفى ذات الوقت اعتبر نشر هذا الخبر أ، هذه الحقيقة ، أو الحكاية – سموها ما شئتم – والتلميح إلى الأبوين بداية لخوض السر ، أمام عيونكم ، أو على أسماعكم .. إلخ

الحكاية :

"لنسمها حكاية تسهيلاً للأمر"

ذات يوم مللت من القراءة والكتابة ، وسماع كلام الأصدقاء والأخوة والرفاق الذين يزورون بيتنا فى أى وقت من أوقات النهار ، ودون سابق إنذار أو موعد ، والذين إذا رأونى حزيناً برموا وجوههم وتأففوا لأننى لا أسليهم بمرحى شبه المعتاد – والذى يحير بعض النقاد أن هذا المرح لا وجود له تقريباً فى رواياتى وقصصى – أو بحكايات فلسطينية أحفظها ، أو اتخيلها أحياناً وكلها تعود أيام زمان.

آ... المهم فلنعد إلى موضوعنا : ذات يوم مللت من كل شىء ، من الطعام ،والكلام ، والراديو ، والفيديو – كان عندى فيديو وخرب لكثرة اللعب به من الضيوف الذين أيضاً يأتون للتفرج على أفلام وطنية أحتفظ بها وأفلام ومسرحيات لعادل امام الذى لولاه ، أقصد لو لا أنه يساعدنى على الضحك لمت من الغيظ وطقيت من القهر – والزوار إلخ..

ولأننى مللت فقد قررت أن أذهب إلى المدينة وأشرب نفس أركلية – بالمناسبة أيام زمان كنت أشرب أركلية ، ومع النفس بستمر فرابة الساعة أشرب ثلاث أربع كاسات شاى بلون العقيق ، روبمايكون سوء حظى هة الذى دفعنى للذهاب إلأى مقهى (..) – ولن أذكر لكم اسم المقهى لأنكم يتعرفون من ايم المقهى أين يقيم شخوص هذه الحكاية – فى مدينة (..) وهناك التقيت بصديقى القديم (..) – غيرت رأيى سأضع

غير الاسم الحقيقى للصديق القديم وليكن الاسم محموداً — الذى رحب بى كثيراً ، وعانقنى بحراره حتى شككت أنه يحتاجنى فى أمر ما !

طلبت الأركلية وشاسا ، واندمجت وايه فى حديث نشأ عن أسئلة حول الأسرة ، وأسرته كما أعرف هى زوجته ، ولكن آباءنا عملونا أ، لا يسأل الرجل عن زوجته مباشرة ، لأن هذا التباسط ورفع الكلفة هو عيب ، فضلاً عن أنه يشكل إحراجاً للذى يسأل والذى (أوضاعنا لاتسر أحد خاصة بعد رحيلنا عن بيروت ، ومع ذلك فنحن نسأل عن أحوالنا وأوضاع أسرنا).

بدأ الزبائن يفدون إلى المقهى ، كلهم من الكتاب والشعراء والمثقفين الذى يجلسون وراء زجاج المقهى — للمقهى واجهتين زجاجيتين على الشارعين المتقاطعين على مقربة من قلب المدينة — ويصفقون أحياناً ، أو يشتبكون فى أحاديث صاخبة ، وأحياناً يصغون بوقار لواحد منهم يتلوشعرا على اسماعهم وهو يزوى ما بين حاجبيه.

ومع اتعقاد سحب الدخان ، واكتظاظ فضاء المقهى بضباب دخان الأراكيل والسجائر وفشل المكيفات فى تلطيف حرارة الجو داخت رؤوسنا ولم تعد نسيطر — أو هذا ما حدسته — على حديثنا فمضينا مع الكلام الذى أخذنا مآخذ شتى — كما يقولون — إلى أن وصلنا ، أوصل بى محمود — وهو بالمناسبة ليس صديقاً لا حميماً ولا غير حميم — إلى النقطة التى أراد ألأ، يوصلنى إليها ، والتى تؤرقه.

ضحك محمود ضحكة صغيرة ، تهكمية هز جسدة معها ، وهز رأسه الذى يبدو دائما مستقلاً عن جسده ، وأخذ يتكلم :

-هى مشكلة قلبتها كثيراً على أوجه عدة فوجدت أنها مشكلة ، ربما بدت فكهة مثيرة للضحك ، لكنها مشكلة ! بالنسبة لى الأمر طريف ، بل ومفهوم ، هذا ما يوقعنى فى مشاكل صغيرة متلاحقة يوميا مع "سميرة".

واستيقظنا على صوت واحد يصرخ وهو يضرب يده على الطاولة والكاسات ترتج وتصطك ، وهو يردد نصف واقف ، نصف محنى الجسد:

-إنه تافه ، صوت سيدة نعم برجوازى صغير تافه ، معاد للتجديد و..

ضرخ رجل وقور فى وجهة ، كنت أرى صورته أحياناً فى الصحف اليومية ولا أقرأ له ، وإن تعجبنى عناوين الزوايا التى يكتبها — وهو يشد جذعه إلى الوراء ويتطلع بنظرة فيها غضب واعتداد :

- أصمت ، لقد اقتحمت عالمنا وتحملناك ، وها أنت تضرخ بقلة أدب وتزعج الناس بسماجتك وظلك الثقيل.

وساد الصمت.

وعلق صاحبى محمود.

-هم فى أوطانهم رغم كل شىء ، بالهم فاضى كما كانت أمى تقول، الذى مثلنا يرحل كل بضعة أشهرمن بلد إلى بلد ، ينتقل من بيت إلأى بيت ، لا تعرف الاستقرار ، اليوم تستقبل بحفاوة وبعد غد يلعنون سنسيفل أجدادك.

ودخن سيجارة ، وهو يهز جيده على الكرسى ، وينظر إلأى لا شىء بعينين نصف مغمضتين.

سألته وأنا أنفخ دخان الأركلية فى القضاء.

-أتعانى من مشكلة ؟!

-آ ..ماذا أقول لك إنه ، هنا المسكلة ياصح ، الأمر يحتاج إلى تفسير.

وعاجنى بسؤال مباغت :

-لماذا يتزوج الناس؟

وأجبته وأنا أسحب نفياً عميقاً – (وأنا أحب الأنفاي العميقة ، وسماع قرقرة الأركلية ، جدى كان يضع فى ماء الأركلية التيشميها الشيشة زغلولتين بندورة وينبسط بمرأى الزغلولتين تدوران فى المياه كلما سحب نفساً عميقاً وهو يجعص على الدكة أمام دكانه فى قريتنا ذكرين أيام زمان):

-ربما ليرتاح الناس ، لينجيوا أبناء وبناتاً ولأنهم .. أقصد لأن الرجال والنساء يحتاجون واحدهم للآخر وإن كنت أنا..

-وقاطعنى :

-أنا لا أسأل عنك ، أنت وأنا والمثقفون لسنا المقياس لدراسة المجتمع ، أنا أسأل عن الناي بشكل عام ، ولهذا أرى ، تفكير وتأمل ، أن قانون الحياة أقصد قانون استمرار الحياة يدفعنا إلى ذلك ..

وعندما لاحظ لامبالاتى علق :

–أعذرنى للاستطراد . ولكن مشكلتى لم تعد فكهة ، لا ، انها خطرة جداً.

وفجأة نادى النادل ، ونفحه — وهو يحب استخدجام مثل هذه المفردات (نادل ، تفحه ، فكه ..إلخ)زيادة على ثمن نفس الأركلية وأكواب الشاى ، ومضغ زاوية وهو يرد شكر النادل ويعلق:

–نادل لطيف يقدرنى حق قدرى ، مت أفضل من عرفت من .. النلاء.

وكالعادة لم أميز كان جاداً أم ساخراً وهو يسر إذا لم يتميز أحد مايريده بالضبط أو ما يرمى إليه ــويرى بأن هذا يدل على براعو التفكير ، والكتابة وعمق المعرفة ، لهذا مثلاً يقدر همتغرى أكثر من كتاب مبدعين آخرين)

وضع الجاكيت الخفيف "الصيفى" على كتفه "وهو يجب أن يبدو لامبالياً"وخطونا ببطء (خاصة أنا لأن رأسى يعانى من دوار الأكلية وضغط المكان) إلى الباب الزجاجى الثقيل ، الذى ما أن دفعه حتى صرنا على الرصيف ، فى القيظ الاهب والشارع الخالى من المارة تقربياً، والجو التظيف من الدخان ، وبحسم وكأن الأمر لا يحتاج مناقشة قال ، وهو يميل رأسه قليلاً:

–تذهب للغداء عندنا ، وأبسط المشكلة أمامك بوضوح أكثر ، لأننى فى مثل هذا المكان آخذ خذرى ، فكل شىء كما تعلم ، وكما كان يقول هنريك ابسن : خرب سىء الإدارة ، نعم إنه عالم خرب يىء الإدارة.

وضحك ضحكة صغيرة.

–إن إدارة هذا المقهى أكثر حكمة وإنسانية من إدارة هذا العالم الصفيق!

ومشيت على مقربة منه ، وأنا أحاول التنفس بعمق لأنظف صدرى من ثقل دخان الأركلية .التفت إلى وهو يبطىء من مشسته وسأل:

–أتعانى من تعب ؟!

–لا ولكن الأركلية أرهقتنى.

مسح العرق عن جبينه ومضغ زاوية فمه.

–نحن لسنا كالآخرين ، هم يولدون لأنهم يولدون، ولكن نحن يجب أن نولد. ماذا يهم إذا لم يولد مئة ألف بريطاتى، أو دنمركى مثلاً، ها؟!

إنه يتكلم مع نفسه ، هناك شىء ما عتده يريد أن يفصح عنه ، ولكنه يلف ويدور ، ربما كعادته يريد أن يثير اهتمامى . قطعنا الشارع إلى الرصيف المقابل ةدخلنا إلى حى كان عريقاً فى زمنبعيد ، توقف فى ظل أحد البيوت ، وأخذ يمسح عرقه إلى أن وصلته ، علق بشىء من الحكمة.

–دائما يجب أن تقطع الشارع بسرعة ، ونمشى على الرصيف ببطء.

رفع رأسه ، ونظر فى عيتى مباشرة ، وأضاف :

–إلى أن نمتلك الشارع ، نعم ! لأن الشارع ليس لنا الآن ! وقد يقتلوننا بسيارة ما ؟!!

هز كتفيه بلا مبالاة ، واستأنفنا سيرنا بلا حماس إلى أن صرنا على مقربة من مدخل البناية القديمة التى يسكن فى قبوها.

قال :

-منذ فترة بعيدة لم تزرنا ، أنت تهمل الأأصدقاء القدامى !

ظللت صامتاً

-أنا وزوجتى نعانى مشكلة كبيرة ، والذى يخيفنى أنها قد تتفشى ، وأحياناً تساورنى الشكوك ، مرة رأيت فيلماًمن أمريكا اللاتينية عنوانه دم الكوندور ، إنه فيلم عن جريمة تقترفها بعثة طبية أمريكية ضد أهل البلاد الأصليين ، وأظن أحداث الفيلم تدور فى بوليفيا ، فتعطيهم عقاراً يسبب عقم النساء ، وبهذا يمكن منع الإيجاب فى بلاد كثيرة من العالم إذا أراد الأميركان ، بعد النجاح بتجاربهم.

عندها سألته بتفاد صبر :

-ولكن عن ماذا تتحدث ؟

-هم .. عنا ، عنا نحن ..

وأمسك بيدى ، وخفض صوته عن ذى قبل :

-اسمع يا صاح ، زوجتى حامل ..

ضحكت ، فهز رأسه.

-ليس فى الأمر ما يحزن يا صاح ، لأن زوجتى حامل منذ أحد عشر شهراً ..

بطن سميرة وجدت أن الولد أو .. البنت يتحرك أو تتحرك ، ومع ذلك قلت ربما توجد غازات كثيرة في بطن سميرة .

و أسمحوا لى أن أقول لكم بصراحة : هنا ، عند سماعى لهذا الكلام انفجرت ضحاحكاً وامتزجت دموعى بعرقى واستندت إلى الحائط وظل صاحبنا متماسكاً ، راسما على وجهه ملامح الجد .. التى مع إغراقى فى الضحك تحولت إلى حالة من الاندهش والاستغراب والاستنكار أيضاً ، وببرود سأل :

-هل فرغت يا صاح ؟!

ومسحت دموعى وعرقى وأنا أحاول إيجاد كلمات اعتذار مناسبة ، ولكنه أخذ يردد بلهجة مسرحية:

-لا عليك ، لا عليك ، أنت لا تعرف شيئاً . على كل ، ذهبت أنا وسميرة إلى الطبيب الذى أمر بتصويرها بعد عماية الفحص التى أجراها لها ، فماذا كانت النتيجة ؟ الطفل كامل النمو ريجب أن يولد.

-ولكنه لم يولد !

-لا ، ولن يولد.

-نعم ..؟!

-لماذا ؟ هو لا يريد !

وضحكت ضحكة صغيرة وأنا أردد:

-مش على كفيه ..

-يا رشاد الأمر أخطر مما تتصور.

-كيف ؟

-الولد يتكلم

-نعم ؟

-قلت لك : الولد يتكلم وهو فى بطن أمه ! باختصار قرر الطبيب أن يجرى لسميرة عملية قيصرية ، هل ولادة قيصرية لإخراجة رغم أنفه.

-هل الطبيب هو قال رغم أنفه؟

-لا ، أنا الذى أقول : وأنت طبعاً مازلت غير مصدق للحكاية ، لقد استيقظت سميرة فى الليل على خبطات ، ولا تعلق من بعد إذنك أى تعليق ساخر ، نعم خبطات فى بطنها ..

واسيقظت فسمعت الولد وقد عرف الطبيب أنها حامل بولد ، وعرفت سميرة من كلامه هذا الأمر ، يقول لها : لا تعذبى نفسك لم أخرج حتى بولادة قيصرية ، وكادت سميرة تموت من الرعب ولكنها لم تخبر الطبيب بما حدث لها ، وصباح التالى زرتها فى المستشفى لأكون قريباً منها عند إجراء العملية وفوجت بصوت ، نحيلصارم يردد : لن أخرج أنا هنا مبسوط ، تنتقلون بى حيث تشاءون دون أن أط لأى شىء ، لقد سمعتكما تتحدثان عن المطارات والحدود وعن الموت والقتل والسجون ، فقررت أن لا أخرج أبداً.

وضعت يدى على رأسى وكنت أود لو أضعها على رأس صاحبنا الذى ظننت أنه يريد أن يكتب قصة ولكنه قبل كتابتها يرويها لى ليرى رد الفعل على فكرتها ، وهذا ما يفعله بعض الكتاب أحياناً ، خاصة كتاب القصة القصيرة ، عندما صرنا أمام باب بيته تماماً جاءنا صوت سميرة : قلت لك اسكت ، إنك تفقدنى أعصابى.

دخلنا ، فرحبت بنا سميرة ، وللحق فإن بطنها المنتفخ المندفع أمامها لاقانا قبل أن نرى وجهها.
سألت :
-هل عندكم أطفال ؟

فابتسم صاحبنا وعرف أننى سمعت صوت زوجته سميرة ، وبشىء من الانتصار قال : لا قالها بحزم وبشىء من التأنيب على الضحك الذى ضحكته وكى لا استطرد كثيراً ، أو أضيع فى التفاصيل أود أن أقول لكم أيها السادة القراء: بأن السيدة سميرة قالت لى أثناء تناول طعام الغداء: "زوجها صاحبنا أعد المائدة بينما هى تحكى لى عذابها، وتضحك أحياناً ، وتوشك أن تبكى أحياناً ، وهى تردد : لماذا أنا ؟ . أقول لكم بأن السيدة سميرة تود أحياناً لو تمزق بطنها بسكين المطبخ ، لتتخلص من هذا العذاب ، وهذا البلاء الذى ابتلاها الله به من دون النساء "تقول من دون بنات جنسها".

عندا زرت صديقى (...) طبيب الأمراض النفسية والعصبية ، وهو فلسطينى ، استطرف الأمر ، ثم قلبه على وجوه شتى ووضع نظاراته على أرنبه أنفه ، ووقف ، وأخذ يقلب الكتب المرصوصة على رفوق غرفة الاستقبال التى جلست وإياه على مقعدين فيها ، تحاصرنا نظرات علماء النفس المشهورين "نظراتهم فى الصور طبعاً"، وحالة الصمت الوقور أيضاُ.
سألنى صاحبى الطبيب:
-أنت مثقف و.. كاتب فما رأيك خاصة وأنك قريب من الحالة ؟!

-قلت :

-وضعنا غير معقول أليس كذلك ؟

هز رأسه ولم يعلق .أضفت :

-اللامعقول يعطى لا معقولاً ، أنا غير متأكد ولكن هناك مؤشرات.

يوجد حمل أليس كذلك ؟!

-هم .. هم .. هم.

-أخذ يهمهم وينقر على الكتب أمامه وكأنما يريد أن تسعفه بالجواب الشافى خرج من حالة الهمهمة والنقر على الكتب ، وما يشبه الذهول ، وقال:

-يجب أن أرى الحالة.

-ولكن الأب والأم يريدان ، الأم خاصة حساسة جداً وربما يؤثر تسرب الأمر على أعصابها ، مثلاً لو علم أحد الصحفيين وسرب الخبر و ..إلخ أنت تعرف سيكون الأمر قريباً من الفضيحة!

-طيب أنت ، هل حدث وتكلم الطفل أمامكم ؟ أقصد بحضورك ن مادمت تتردد على بيتهم بكثرة ، بعد أن أقحموك فى مشكلتهم ؟ !

-قلت :

-سمعت صوتاً نحيلاً مرة وكانت المرأة تقف بشكل موارب ، أنا متأكد أنه ليس صوتها ، كما أنه ليس صوت الأب الذى كان أمامى ، وفى فمه سيجارة.

-يجب تشخيص الحالة ، أنا مستعد أن أذهب لزيارتهم إذا رادوا .

–قبل أيام كنت فى أحد المطارات العربية فرأيت بطناً هالاً يندفع محمولاً على رجلين توشكان على الانهيار من ثقل الحمل وسمعت تعليقات (غير معقول ربما تحمل دزينة فى داخلها ، إنها شاحنه) رأيت الدهشة والابتسامة ، والضحكات.

–التى يكتمها أصحابها ، ورأيت صديقى محمود يحمل حقيبة يدويةوكتباً ومجلات تحت إبطه ، يمشى ذاهلاً متبرماً.. ناديته فتوقفت ونظر إلى :

–ها إلى أين ؟

–لن أقول لك سأرسل سميرة إلى حيث يمكن أن تلد هذا الكائن.

–ثم سألنى :

–وأ،ت إلى أين ؟!

–وسمعت النداء الأخير للطارة التى سأسافر فى جوفها إلى مكان آخر فى هذا العالم ، وتفقدت جواز الى يحمل اسم بلد ما – وأسرعت إلى بوابة المغادرين.

–إخوانى القراء لكم أن تصدقوا هذه الحكاية ، ولكم أن ترفضوها ولكن ، وفى كل حال فكروا بحياتنا جمعياً ، حيث أننا جمعياً نعيش فى بلاد – ربما لسناجمعياً ولكن الأغلبية الساحقة منا – يرفض فيها الأطفال أن يولدوا ويفضلون بطون أمهاتهم الضيقة على عذاب الحياة فى بلادنا هذه !!

–أما أنا فسأواصل الكتابة رغم كل شىء حتى يأتى ذلك اليوم ، الذى يولد الأأطفال فيه وهم فى شهرهم السابع ليكسبوا شهرين من الفرح ، أى

ليولدوا قبل بلوغ الشهر التاسع .. لأن الحياة جميلة ، اقصد ستكون جميلة .. ألن تكون كذلك ؟!!

الحياة

(١)

فأر جاف تماماً ، جلده الجاف ملتصق ببعضه ، رأس الفار صغير مغمض العينين ، يبدو أنه حاول أن يعبر الأسفلت العام فضربنه سيارة مسرعة ، فمات ، وبسبب الطقس والغبار جفت جثته الصغيرة ، وبقيت هكذا جلداً متيبساً على الرصيف الترابى.

اقترب منه فأر كبير ، دار حوله ، داعبه قليلاً بقائمته اليمنى الأمامية ، ثم بذيله الكبير ، ثم نفخ أنفاسه فى عينيه المغمضتين فلم يتحرك ، والفأر الكبير الذى لم يفهم شيئاً سمع مواء فانسحب بسرعة واندفع فى حجر لصق جدار إحدى البنايات ، رأى قطاً كبيراً يدور حول الفأر الصغير "النائم" ويطلق مواء كثيراً ،والفأر الضغير لايتحرك ، ولا يفتح عينيه.

لم يصدق الفأر الكبير المرتجف ما يراه وما يسمعه ، رأى القط الكبير يبتعد مسرعاً، فدهش الفأر اللابد كثيراً ، لشجاعة الفأر الصغير ، وهروب القط الكبير!

قط كبير ن قطع بعينيه يمنة ويسرة ، رأى السيارات تندفع مسرعة، وهو يريد أن يعبر الطريق الأسود العريض ، لبث قليلاً ، ثم عندماً انقطع تدفق السيارات قفز قفزات سريعة ، ولكن بوق سيارة أرعبه وجعله يندفع أكثر إلى بوابة بناية مفتوحة الباب على مقربة من الرصيف الآخر.

الكلب الكبير الذى يراقب القط ، أطلق عواءه وهجم ، ولكن القط استدار بقوة ونط من جديد مندفعاً عابراً الطريق دون تفكير بالسيارات التى كانت تطلق أبواقها ، فضربته سيارة بقوة ، وبصوت مدو ، فتلوى كثيراً حول نفسه ثم تكوم نازفاً بجوار الفأر الميت منذ زمن.

سمع الكلب صوتاً خافتاً فأصاخ السمع ، ولكنه غوجىء بضربة على رأسه ، عندما فتح عينيه ليرى ما يحدث ، وإلى أين يمكن أن يتجه، أو منالذى هاجمه ، ومن الذى يجب أن يهاجمه هو ، كان قد فات الآوان..

لقد مات الكلب وفى نباح كثير...

صباح الخير أيها الغريب

إنه يوم رمادى . إنه يوم بارد ولكن بلا مطر .إنه يوم عطلة .إنه وحيد منذ أشهر ، يأكل وحده ، ينام وحده ، يعنى — أحياناً — وحده.

عند مغيب الشمس خرج أخذ يتمشى وحيداً.

حاول أن يتذكر أغنية مفرحة — تزيل عن صدره الكآبة — فلم يتذكر.

— هبت نسمات باردة مشبعة بالبلل فارتجف جسده ، ولكنه لم يفكر فى العودة إلى البيت ، إلى غرفة النوم ، غرفة الاستقبال التلن يستقبل فيها أحداً،ألمليئة بالكتب والجرائد — إلى الحمام والمطبخ والشرفة وصور أصحاب البيت واسطواناتهم القديمة المتآكلة (بينها اسطوانات إيطالية ، وفرنسية ، واسطوانة واحدة للشيخ صالح عبد الحى ، ألحان رياض السنباطى كلمات بيرم التونسى : ليه يابنفسج)

سيارات كثيرة مرت مسرعة ، أناس قيلون — بسب الطقس البارد — مروا مسرعين .إنه يمشى ببطء ، ولا يتذكر لحناً مرحاً . التفت فرأى فتاة تمشى وحدها ببطء ، إنها تمشى وراءه تقربياً ، إنها على مقربة منه ، أبطأ فى سيرة ، صارت بمحاذاته ، امتلك شيئاً من الجرأة:

–مساء الخير .

–مساء الخير.

–أنا غريب وتهت عن المكان الذى أقصده.

على وجهها طيف ابتسامة.

–وماهو العنوان ؟

ذكر العنوان لها بالضبط ، فأخذت تصف له كيف يصل إلى (بيته) !

قالت له :

–أراك أحياناً وأنت تتجه إلى البناء حيث تسكن ، أحياناً أراك من الشرفة وأ،ت تدخل البناء وتصعد الدرج حاملاً أغراضك إلى الدور الثانى، أرالك على شرقة شقتك حيث تقيم. عملى فى البناء المقابل،أليس هذا بالضبط حيث تقيم؟

–إنه هو ، أعتقد أنه هو ، ولكن .. !

–ولكن أنا ، أيضاً كذلك ، إننى أقيم مع صديقيتى على مقربة من عملنا.

–آه

مشيا بصمت متقاربين.

–مارأيك أن ..؟!

وارتعش صوته ، ومرت السيارات مسرعة ، وهى تضىء أنوارها، وقل ظهور المارة فى الشارع.

امتدت أصابعه فالتقت بأصابعها ، ومشيا معاً.

وصلا إلى حيث يسكن . وصعدا الدرج ودخلا فرأت الفوضى ، ورأت الكتب والمجلات والصحف وبقايا الطعام فى صحون مهملة.

جلسا على مقعدين متلاصقين ، تطلع إلى وجهها فرأى أنها قمحية اللون – أخواته أيضاً قمحيات اللون – ووالده وأمه وجدته قمحيو لون

البشرة ، غالباً سود العيون ، وهى كذلك سوداء العينين ، عيناها أهدابها طويلة ، وهى ترمش بهما تغطى عينيها كلما التقتا بعينيه.

قامت وحملت الصحون إلى المطبخ ، وهو على مقعده يراقيها.نظفت الطاولة ، أخذت ترتب الكتب والمجلات والصحف .

نهض وأخذ يعد العشاء ، سألها :

–أحضر لك منامة ؟

–لا بأس .

أحضر لها منامة ، وبدل ملابسه بقميص وسروال صيفيين ثم دخل إلأى الطبخ وواصل إعداد العشاء، بينما هى ترتب غرفة الجلوس.

إنهما يتبادلان النظرت ولا يتكلمان، مد بلقمة إلى فمها فأبتسمت، ثم فتحت فمها وأخذت اللقمة مع عضة صغيرة على أصابعه.

عندئذ شعر أنه صار مرحاً ، وأن شيئاً رمادياً ثقيلاً انقشع عن صدره.

سألته وهى تحمل الصحون إلى الطبخ .

–أنت غريب ؟

–أيوة !

–من مكان بعيد ؟

–أيوه .

–وأهلك ؟

–هناك فى المكان البعيد.

–و ...

–أنا متنقل ، أحياناً باختيارى ، وغالباً لأننى غير مرغوب فى .

–فهمت !

أخذت رأسه الذى رأته يميل قليلاً باتجاه كتفها وأراحته بين عنقها وكتفها . أخذت أصابعها تداعب شعره وأذنه وفمه وأنفه ، فأغمض عينيه، وتنفس بعق وراحة.

فى الصبح استيقظ على شمس دافئة تخترق أسعتها الزجاج ، وتتدفق فى أرجاد البيت ، فرأى أن الوسادة التى بجوار وسادته قرب رأسه ، مجوفة وقد ترك الرأس فيها رائحة نسائية ، وشعرات طويلة ناعمة سوداء . غادر السرير فرأى نفسه بقميص وسروال صيفيين . غرفة الاستقبال مرتبة ولإفطاره جاهز ، منامته التى ارتدتها مغسولة ومعلقة على الشرفة ، حيث يقف أحياناً وحيث تراه ، وهى فى عملها.

عاد إلى غرفة الاستقبال فرأى ورقة ، التقطها وقرأ :

صباح الخبر أيها الغريب ، لم أقل لك أننى نقلت من عملى إلى مدينة بعيدة ، وفيها ذكريت عزيزة على .. وداعاً.

وقف على الشرفة ، الشمس دافئة ناعمة ، أخذ يفكر فى الحائق التى يحتاجها لملأها بكتبه وملابسه ودفاتر مذكراته ، وقصاقيص الصحف والمجلات التى بحتاجها ، ولم يتأكد إلى أين سيكون وجهته فى الأيام القادمة ، ولهذا بالضبط صار كل داخله وحوله رمادياً...

الياسمين الأزرق

حى العمارة :

أوقة ، بيوت عالية ، شبابيك متجاورة ، رائحة رطوبة ، روائح طين خاف ، روث بهائم . الفلاحون يفدون إلى الحى من قراهم فى الغوطة الشرقية .. أجراس أغنامهم توقظ النيام ، وأصوات (يا حلاب انتظر ضع للولد كيلو حليب) والحلاب يجلب أغنامه تحت أنظار الأولاد ، الذين يفرحون بأجراس الأغنام ، وبنداءات الحلابين ، وبارتشاف الحليب الساخن من الأباريق والأأونى التى يحملونها.

حى العمارة العتيق ، وباعه الحلويات ، الفطائر ، والحمص والفول والفلافل والمخللات ، حى الحمامات القديمة ...

فى المساء وقف فيصل وصديقة "أنا مدخل حى العمارة ، على الأسفلت.

قال فيصل :

–أتذكر بيت صاحبنا عمر ، إنه فى المزابلية (اسمه هكذا فعلا)عمر الآن فى بلجيكا ، درس المسرح ، ولكنه لم يجد مسرحاً يعرض عليه مسرحياته ، لم يتحمس قادة المنظمات لأفكاره المسرحية عندما حضر إلى دمشق وبيروت ومعه شهادة الدكتوراه فى الإخراج المسرحى ، فعاد ورحل إلى بلجيكا ، ليكتب عن فلسطين . دخلنا حى العمارة.

وقفت أمام باعة الحلويات ، اشتريت "هريسة"

فيصل قال :

–لا ، لا أريد آكل هريسة ، إنها ثقيلة على معدتى وأنت تضرك، ألست تشكو من القرحة منذ سنوات ؟

–عندى حنين لكل شيء ، إذا منعت نفسى عن كل ما يضرنى فسأموت حتماً.

–مصمصت أصابعى ، مثلما كنا نفعل عندما كنا صغاراً . فى نهاية الوقاق توقفنا . فيصل شدنى من يدى ، فتوقفت ، فى الضوء رأيت وجهه وقد شحب.

قفا نبك :

–قال فيصل :

–فى المدرسة التى نهاية الشارع — وأشار الذى خلقناه وراءنا — عملت شنتين.

–وفجأة صمت ، تهدج صوته.

–هنا ، فى هذا الكان الذى نقف فيه كنت ذات يوم أمشى ببطء كعادتى، أتأمل الوجوه – وهى عادة لا عرف لها تفسيراً محدداً — فرأيت فتاة تنبثق من هناك.

إنها تطلع من متعطف الزفاق ، مديدة القامة ، رشيقة ، وجهها ناعم ، أبيض ، منديل أورق يلم شعرها ويؤطر وجهها.

أخذ فيصل يتطلع إلى المنعطف ، كأنما الفتاة ستظهر فجأة ثم استأنف كلامه :

ارتكبت مشيتها قليلاً ، اختلجت أهدابها ، أما أنا فقد تسمرت فى مكانى هذا ، حيث نقف الآن ، عتدما مرت بى تركت عطراً إنه عطلا الياسمن ، استيقظت من ذهولى وأنا آخذ نفساً عميقاً ، أستدير بسر عة لأراها قبل أن تختفى عند ناهية الزقاق هذا الذى نحن فيه الآن ، فرأيتها تلتفت قليلاً ثم تمضى .

فى اليوم التالى ، فى نفي الوقت ، التقينا / التقت نظرات عيوننا ، هب ياسميتها ، ملأت ورقة منديلها وابتسامتها الغامضة روحى ، فارتجفت ، عند المنعطف فى الشارع العام.

فى اليوم الثالث .

فى اليوم الرابع .

فى اليوم الخامس.

فى يوم ما ، لا أعرف أى يوم تأخرت ، لم تظهر فأوشكت على الانهيار ، مشيت هذه المسافة مرتين ، ثلاث ، عشر مرات ، لا أدرى كم مرة ، وإذا بها تظهر ، وابتسامة حزينة على وجهخا. أقربت منى . ومدت يدها بلفة ورقية بحجم الكف ، وقالت :"هدية لك" ثم قالت بعتب وخوف : لماذا جئت متأخراً ؟ فدهشت لأننى جئت مبكراً ، وانتظرتها ، ووقعت فى حالة ذهول عندما قالت لى : غداً سأتزوج ، لن ترانى ، ولم أراك ، ومضت وفى عينيها دموع ، وفى قلبى رعب فى تلك اللحظات أدركت بأنى سأموت ، سأخر صريعاُ وأموت ، .. عندما التفت كانت قد اختفت.

جلست هنا ، على كومة الحجارة هذه وفتحت اللفة الورقية فماذا وجدت ؟ منديلاً أزرق تفوح منه رائحة الياسمين.

-ألهذا احضرتنى معك ، لتقف على ألأطلال؟!

-دائما أعود إلى العمارة ، أتمشى فى هذا الزقاق وأتوقع أن أرى فتاة تطلع من هناك ، على أرسها منديل أزرق وحولها تهب رائحة الياسمين.عندما مشينا – ةقد مشينا ببطء – رأينا فتاة تنبثق نت هطفة الزفاق.

-قال فيصل بصوت يرتجف :

-إنها ...

وقبل أن يكمل جملته ، صارت الفتاة أمامنا تماماً ، استدار فيصل والتفت إليها ، استدرت أنا أيضاً ، رأيناها تدق الباب أحد البيوت ، ثم تطلعت إلينا وهزت رأسها ، وهى تردد:

-مجنونان ، كبيران مجنونان

(مشينا صامتين)

أخرج فيصل لفة ورقية من حقيبته المدرسية التى يحملها دائما ، فتحها بحرص ، رأيت منديلاً أزرقا مطوياً بحرص ومنه هبت رائحة الياسمين.

قال كإنما يحدث نفسه:

-سبع سنوات لم أنس ، من باريس لروما ، لبيروت ، درت ، تعرفت بنساء ، ولكن لم أنس ، لم أنس فتاة منديل الياسمين الأزرق.

ثم أطلق دعاءه

–ألا فيحفظك الله حيث كنت ، وليهبك السعادة ، أنت امرأة من ياسمين.

ملاحظة : المدهش أننى أصبت بالعدوى ، عدوى حب فيصل لفتاة المنديل الأزرق ، وقد ذهبت مرات إلى حى العمارة بدمشق ، مشيت فى ذلك الوفاق وحدى . وكأنما أتوقع رؤية تلك الفتاة التى سكنت روح صاحبى منذ سبع سنوات.

إخوتى القراء : إذا ألتقيتم بفتاة من ياسمين ، وبمنديل أزرق فلاتتوقفوا لتأملها ، ذهه نصيحتى لكم .

الضحك فى أخر الليل

قررت أن تنتظر والدها حتى عودته إنه يعود متأخراً ، وينام حتى بعد ذهابها وأخواتها إلى المدارس منذ أيام وهو مشغول ، لذا فهو لا يعود مبكراً . يسألها وأخواتها – هى أكبر أخواتها البنات والأولاد – عن الدروس ، ويبدى رضاه وهو يقلب صفحات الدفاتر بقليل من الاهتمام وكثير من الشرود لمى لا تعرف كيف وضع والدها فى هذا المنصب !

كيف قبل بهذا العمل ! وهى لم تجرؤ على سؤاله. مرة قالت لأمها متسائلة؟

أ لم يجد أبى عملاً أشرف من هذا العمل ؟ فتهرتها أمها ، وقالت لها : والدك ليس مخبراً ، إنه يقوم بواجبه فى حماية البلد وتقدمه . يبدو أنك تسمعين كلاماً شيئاً من زميلاتك فى المدرسة ، أياك إياك يالمى أن نطرحى مثل هذا التساؤل أمام والدك .لقد ناضل والدك وتعب حتى بلغ هذا المنصب أتعرفين يالمى أن والدك سجن وأوقف عن العمل أيام زمان ؟ أتعرفين أننى ووالدك جعنا ؟ أ،ت لا تعرفين شيئا ، هذه المدرسة التتتعلمين فيها كانت ذات يوم لأبناء الذوات فقط ! والدك علم فى القرى ، وقاد التظاهرات.

أمها عن السيارات التى تفتخر بها العائلة وكيف امتلكتها ؟ وإذا ما كان راتب والدها كفيلاً بتأمين رفاهية حياتهم إلى هذا الحد ، هى فى

السنة الأخيرة من دراستها الثانوية ، وتبلغ الثامنة عشرة تذهب إلى المسرح، وتشاهد أفلام السينما فى النادى السينمائى ةهى عن الأفلام الهندية ، وأفلام الكارتيه ، والأفلام العربية التى تعرض للجمهةر فى الصالات الكثيرة فى العاصمة وفى غيرها من المدن.

لمى تحب المسرح ومولعة بشكسبير ، قرأت الملك لير وكبث وهملتوروميو وجولييت وعطيل ، ولمى التى تبلغ الثامنة عشرة قرأت مكبث كثيراً وتفرجت على الأفلام المأخوذة عن مسرحيات شكسبير.

بعد أن شاهدت يوليوس قيصر ، عادت وقرأت المسرحية ، أحضرت الأشرطة وتفرجت عليها مع صاحبتها فى البيت أمها كانت تهو رأسها، وتعلن مللها من الأشرطة المرهقة للدماغ !

أمها كانت تتفرج على أفلام خاصة تعرضها للصديقات اللاتى يحضرون للسهر أحياناً ، وما كاتنت تسمح للمة ولأخوتها الصغار بالتفرج على تللك الأفلام.

أحياناً كانت تحضر أفلاماً عربية تظهر فيها نجوى فؤاد وهى ترقص. أو تحضر أفلاماً قديمة لتحية كاريوكا وسامية جمال ، وتحاول أن تتعلم الرقص العربى لأنه يساعدها على التخلص من سمنتها ، ويجعلهاتحافظ على رشاقتها.

فى العطلة الماضية عندما ذهبت لمى إلى قريتهم ، لم تفرح كما توقعت علمت من عمها — أصغر من والدها بعشر سنوات ، مازال يعمل معلماً فى القرية ، وبعد انتهاء فى المدرسة تذهب إلى الحقل بعد أن

يبدل ملابسه ويعتنى بأشجاره — أن كثيرين اعتقلوا ، وأن بعض الذين اعتقلوا قتلوا ولم تسلم جثثهم لأهاليهم !

قال لها عمها :

–الحياة ما عادت تطاق ، رحم الله أيام زمان يا لمى أيام زمان كان القانون سيداً ، وكانت العلاقات الاجتماعية ، هذه الايام خرب كل شيء !

وفجأة سألها : و ... كيف حال والدك ، هل يتذكر قربتنا ؟ يبدو أنه مشغول جداً ... بعمله ، وأمك ، كيف أحوالها ؟ يبدو أن عيشة العاصمة طابت لها كثيراً ، رحم الله أيام زمان ! أتذكرين يوم كانت أمك تعد الكبه النية فى هذا الجرن ؟ كنت صغيرة أليس كذلك ؟ ولكن أنت تذكرين ! على الأقل أنت تعودين لزيارتنا بين فترة وأخرى، لكن يا عمو ، لا تحضرى إلينا فى السيارة المارسيدس السوداء فى المرة القادمة الناس هنا لا يحبون هذا النوع من السيارات ، إنها تذكرهم بالذين قتلوا وسجنوا أبناءهم ، أنت يا لمى طاهرة التفس ، فابق كذلك، حافظى على نفسك عمو.

غادرت لمى فى سيارة أجرة / السيارة التى تأخذ الناس أبناء القرية إلى العاصمة ، وفى الليل عندما عاد والدها من عمله يألها عن شقيقه فقالت له :

–عمى حزين ياوالدى ، إنه مهموم

ولم تفاجأ بكلمات والدها ، فقد سمعتها منه أكثر من مرة.

-وجدت له عملاً هنا ، ولكنه رفض ، عمك يعيش فى أيام زمان، بصراحة يالمى ، عمك فلاح ، وكونه أستاذاً لا يغيره أبداً ، هل حرضك ضدى ؟

-لايا بابا ، أبداً

-هل سأل عنى ؟

-لا بابا ، بصراحة لم يسأل؟

وسألتها أمها :

-وهل سأل عنى ؟ لا ، ي أمى ...و .. لكنه قال : بأنك كنت تعدين أطيب كبة نية فى الجرن الذى مازال أمام البيت ، وأنك .

فتح الباب ، ها هو ذا والدها إنه فى الخمسين طويل متين الجسد، له شارب كث ، وجهه مرهق.

-أمازالت صاحية يا لمى ؟!

-كنت أنتظرك يا بابا .

-خيراً إن شاء الله ؟

خلع جاكتته الجلدية السوداء نخفف من حاكل المسدس ثم احتضن ابنته، وقبل جبينها.

-أنت تكبرين بسرعة يا لمى ، تجعليننى أشعر بالشيخوخة عندما أراك صبية كبيرة هكذا.

-الخامة نائمة يا أبى ، أعدك لك العشاء ؟

–لا تعشيت ، ولكن فنجان قهوة من يديك سيسعدنى ، أين قهوة لمى لوالدها.

–لا تجاملنى ي أبى .

–والآن قبل القهوة ، ماذا تأمر لمى والدها.

–أستاذ الإنجليزية يا أبى .

–ما باله ، ها ؟!

–يا أبى أستاذ الإنجليزية ، أحتاج له ليساعدنى فى تقوية لغتى ، يجب أن احصل على علامات عالية لأتمكن من ...

–ما المطلوب ؟!

–أن أحصل على دورس خصوصية من أستاذ الإنجليزية ، هنا فى البيت.

–بسيطة ، تحضره يا لمى ، أنت تأمرين .

رفع سماعة الهاتف وأدار القرص ، وبنبرة آمرة:

–يا .. من المناوب .. آ .. اسمع غداً تحضرون لى الأستاذ .. أستاذ اللغة الإنجليزية .. من مدرسة الإنجليزية .. من مدرسة ..

–والتفت فهمى محمد.

أخذ يهمهم وأضاف :

–من مدرسة المستقبل أيوة المستقبل ووضع سماعة الهاتف ، وابتسم لا بنته :

–انتهينا ، تكرم الآنسة لمى ، التى تحب شكسبير أكثر من والدها.

-لا لا يا أبى أنا أحب مسرح شكسبير .

-التى تحب مسرح شكسبير أكثر من مسرح والدها.

-لا تقولنى ما لم أقل ، شكسبير كاتب مسرحى عظيم.

-ونحن من تغير المسرح ، لابل تبدعه ، نجعله حقيقة .

ووقفت لمى صامتى ، أوشكت أن تقول شيئاً ، ولكنها انسحبت لتعد لوالدها القهوة.

فى اليوم التالى لم يحضر الأستاذ فهمى إلى المدرسة ، وفى اليوم الذى يليه لم يحضر الأستاذ فهمى إلى المدرسة ، عندما سأل الطلاب والطالبات عن أستاذهم قال لهم المدير :

-لم يسبق أن غاب الأأستاذ فهمى دون عذر ، ربما يكون مريضاً سوف نسأل عنه.

الطلاب لا يعرفون عن الأستاذ فهمى الشىء الكثير ، كل ما يعرفونه أنه مدرس جاد ، درسه حيوى ، أما الطالبات فيعرفت أنه غير متزوج ، وبعضهن يطلن النظر إلى وجهه ، فيطلب إليهن النظر فى كتبهن.

لقد دري الأستاذ فهمى بريطانيا ورأى مسرحيات شكسبير الخالدة —كما وصفها — على مسرح شكسبير ، وقد وفتن بأداء لورنس أوليفييه ، الممثل العظيم.

لقد بدا الأستاذ فهمى ، دائما أصغر من عمره ، إنه يقترب من الثلاثين ، إلا أنه يبدو وكأنه فى الرابعة والعشرين .

أنتظرت لمى والدها من مرة على الغداء لكنه لم يأت .

فى الليل انتظرته ، لكنه تأخر كثيراً ، (ومرات كان ينام في الخارج)

من الاذاعة و الصحف و التليفزيون ، عرفت لمى أن جهات سياسية معادية تتحرك ، فأدركت لمى أن والدها المسئول الأمني الكبير مشغول بالذي يجري و..ها قد فتح الباب ، و دخل الأب مهموماً ، متعباً محمر العينين.

– أهلاً بابا .

– أهلاً لمى ، أين والدتك ؟أأخواتك نائمون ؟!

– والدتي تسهر في بيت وزير الداخلية .

– و .. لكن الوزير معنا في غرفة العمليات .

– و..والدتي مع زوجته و زوجات أخريات في غرفة العمليات .

– لمى ..ما هذه اللهجة؟!

– بابا ..أقصد أنهن يتسامرن ، ما دام أزواجهن مشغولين عنهن.

–طيب أين فنجان القهوة ؟

– ألا تريد أن تتعشى بابا؟

– بعدين..عندما تعود والدتك.

– قد تتأخر !

– لا ، سأتصل بها لتحضر.

– بابا ..

– يا روح بابا.

– أريد أن أخبرك بأن الأستاذ فهمي لم يحضر.!

- أستاذ فهمي من ؟!

- أستاذ اللغة الإنجليزية .

ضرب الأب على جبينه .

- ألم يحضر؟

- لا ، حتى أنه متغيب عن المدرسة منذ أسبوع.

- طيب، اذهبي ، و أعدي فنجان القهوة أيتها الشكسبيرية .

رفع سماعة الهاتف :

- ألو ..طلبت منكم إحضلر الأستاذ فهمي قبل .

و صمت ، ثم :

-ماذا ، ماذا تقول : اعترف! اعترف بماذا؟! وماذا أيضاً ؟ غير معقول هذا ، تقول مات و رفض أن يدلي بأسماء الآخرين ..لكن هذا لا علاقة له بشيء .. طلبت منكم إحضاره لـ ..لتعليم البنت في البيت.

وضعت لمى فنجان القهوة أمام والدها ، فوجئت بوالدها ينخرط في ضحك هيستيري.

- أنت سعيد بابا ! لم أرك تضحك هكذا منذ سنوات .

- يبدو أنني ادخرت الضحك كله طيلة سنوات ، لم أكن أجد الوقت للضحك.

أنه يهّمُ أن يمد يده لتناول الفنجان ، لكنه يعود للضحك ، ثم يتوقف و يطلع على وجه ابنته.

كيف يفسر لها أنهم ، (أحضروه)، وأنه نسي سؤالهم عنه في اليوم التالي و..

يا لمى ..أستاذك متورط في المؤامرة .. و لهذا قبض عليه و.. أعتقد أنه لن يعود للتدريس في مدرستكم، لا تزعلي سأحضر لك أستاذاً أفضل منه...

الأغصان المائلة

زحام شديد ، تندفع سيارات الميكروباص غاصة بالركاب مطلقة أبواقها،، مخلفة ورائها دخاناً أسود ثقيلاً كريه الرائحة ، مثيرة الغبار.

اندفع ولد صغير وراء كرته فكادت مارسيدس ، فارهة أن تضربه لولا سرعة انتباه السائق، الذي انعطف بالسيارة متفادياً الولد.

علّق سائق التاكسي:

-ضاقت الدنيا بأهلها ، الأولاد أستاذ زمان كانوا يلعبون بين الحقول، أو في الفسحات بين بيوت الحارات ، تجار البناء أستاذ ، قطعوا الأشجار ، و كدسوا البنايات و حولوا المدينة إلى أسمنت ، أستاذ ، هل تستطيع أن تتنفس؟

حاول أحمد أن يأخذ نفساً عميقاً ، فامتلأ صدره بالهواء الوسخ الثقيل ، و برائحة المازوت الأسود الذي تخلفه السيارات .

تنبه على صوت السائق ، الذي كان يراقبه في المرأة العاكسة أمامه:

- ها ، ماذا تقول ، أستاذ ، في حياتنا؟

لم يعلق أحمد على كلام السائق ، الجو حار ، خانق و عرقه يسيل على عنقه .

ظهره يشوى بجاد المقعد الملتهب . إنه يراقب فقط ؛ يحاول أن يتذكر الشوارع ، الحارات ، الطرقات ، التي حفظتها ذاكرته طيلة سنوات غربته .

قال السائق :

– هناك ، أستاذ ، كانت حقول المشمش و الزيتون ، كانت الخضرة.

لم ير أحمد غير أسمنت بشع.

والي كتب لي بكلمات كبيرة : احضر ، لقد حصلت على الدكتوراه و هذا يكفيك ، ماذا تنتظر يا ولدي؟ أنت كبرت و أنا و والدتك كبرنا ، والدتك مريضة يا دكتور أحمد ، أنا تعبت من العمل ، أي والله تعبت يا ولدي.

استشهاد أخوك هدّ حيلنا ، كسر ظهري ، غير أمك تماماً ، عد يا ولدي ،لعلك تساعدنا ، تجبر بخاطرنا . أمك ننقلها من دكتور إلى دكتور بلا فائدة ، رغم المال الذي نصرفه على الكشوفات و ثمن الأدوية.

– كم من سنة في الغربة يا أستاذ

انتبه إلى السائق . رآه ينظر في المرآة ، رأى وجه السائق . إنه يرى رأسه من الخلف ، و وجهه في المرآة ، أعجبته الفكرة تصلح لقطة طويلة في فيلم سينمائي . الفم في المرآة يتكلم و الرأس الأشيب في الخلف صامت.

– عشر سنوات.

– هذا كثير يا أستاذ . مهنتنا أستاذ ، متعبة ، ركض بلا فائدة ، في الشتاء نقضيها في برودة السيارة ، و في الصيف نقضيها في جحيم السيارة و الأدهى من هذا و ذاك ، كل راكب و له مزاج و كل راكب يريدك أن تمشي كما يريد ، و كأنك عبد .

ساد الصمت .

مدّ السائق يده و فتح الراديو ، فتدفقت أغنية:

دلعني و أنا دلعتو

ما بيتدلع ابن الفلاح

يا عيني

يا

و صرخ السائق و هو يغلق المذياع :

– أخرسي يا..

و خرست الأغنية .

– تصور أستاذ ، أهذا بالله غناء ؟ . هل يغنون هناك حيث كنت هكذا؟ . حضرتك أين كنت ؟

– الغناء هناك ننظيف ، ولكن ليس كل شئ هناك كما تظن.

– حضرتك أين كنت ؟

–كنت في باريس ، في عاصمة النور (ياما جعت ياما ، نمت بلا نور ولا ..دفء ، عملت في المقاهي و المطاعم منظف صحون و طاولات لأكمل دراستي ، لأعود بالدكتوراه).

– باريس . يحكون أنها حلوة ، أستاذ.

–كل شئ حلو لأصحابه يا أخا العرب

– ها أستاذ ، وصلنا ، من أين الطريق إلى بيتكم؟

– والله..والله.

- يبدو أنك أطلت الغياب فعلاً لتنسى موقع بيتكم .

و ضحك السائق ، و هو يضيف :

- دنيا .، دنيا عجيبة يتوه فيها الإنسان عن بيته .

(هناك كنا ندرس تحت أشجار الزيتون ، نأكل الخس ، و نبتسم للبنات ، و نحلم بآتيات الأيام . عمر كان يحلم بالذهاب إلى هوليود وتمثيل أفلام كاوبوي مع كاري كوبر).

أين عمر الآن ؟ لقد رحل و لكنه لم يمثل مع كاري كوبر ، عمر كان يبيع الجاز المازوت في الصهريج الذي يجره حصان منهك دائماً عمر كان يردد عندما يرى أحد الأصحاب : هاي تشيك هاوريو بوي؟ ..و ..

- أين أستاذ ؟ صرنا في نهاية المخيم ؟

- عندك ، عندك لو سمحت .

- هل عرفت بيتكم؟

طبعاً ، طبعاً ، و هل يتوه الإنسان عن بيته ؟

- لم تقل أستاذ ، دكتوراه ماذا ..؟

- دكتوراه آداب .

ظننتك طبيباً .

-حاول أحمد أن يضحك .

(دكتوراه آداب ، أنا أحتاج لأطباء كثيرين لتخليصي من أمراض حملتها من الجلوس على المقاعد في المكتبات العامة ، تشنج القولون ، انقراص الفقرات العجزية و القطنية ..)

وقف و بجواره حقيبة كبيرة و حقيبة صغيرة ، أخذ يراقب الوجوه (لا أعرف أحداً ، و لا أحد يعرفني) شد ظهره قليلاً فسمع طقطقة فقراته، تنفس هواءً قليلاً ، و سال عرقه بغزارة (هناك يريدون الشمس، و هنا الشمس أكثر ما يجب).

صور شهداء على الحيطان ، شعارات : عاشت فلسطين عربية و تحت بخط مائل : لا تبول هنا ، و..كتل أسمنت رمادية ، رطوبة ثقيلة و عتمة رغم الشمس الشرسة ، صار غربي شارع اليرموك ، في مخيم اليرموك لا أشجار زيتون و لا حقول خضرة . هناك القدم حيث يقال أن النبي محمد وضع قدمه و لم يدخل الشام.

وهناك تقف القطارات ، وتنطلق غى خط الحجاز الحديدي العتيق.

فكر أن يسأل أحداً عن بيت أبي أحمد "والده" لكنه خجل من الفكرة.

كيف يسأل الناس عن بيتهم ، ، ماذا سيقولون لو عرفوه ؟ سيتهمونه بقلة الوفاء ، و النسيان و التعالي.

وضع الحقيبتين . جلس على التراب ، قرأ ورقة النعي على جدار البيت المقابل ، بعد أن شدته ملامح وجه الميت : الشاب محمد ف ..

(إنه محمد فوراني ، صديقنا القديم ،لاعب كرة القدم المدهش ، كنا نناديه ستيف لأنه يشبه ممثلاً أمريكياً اسمه ستيف كوشران).

محمد فوراني مات في حادثة حادث سير على طريق بغداد الشام و هو عائد من الكويت ، هكذا يقول العي ، و آل الفقيد و ... إلخ.

أين بيت أبي أحمد ، الذي حمل زوجته و ابنه و هرب من فلسطين إلى لبنان و سوريا ، و سكن في مخيم اليرموك قرب دمشق ، و تعذب حتى امتلك بيتاً و دكاناً صغيراً ، وأنجب ابناً آخراً في المنفى هو الشيد محمود ..أين بيت أبي أحمد الذي كتب لابنه الدكتور في باريس راجياً إياه أن يعود لأن أمه تموت بعد فقدانها ابناً في الغربة و ابناً في بيروت ؟ أين بيت أبي أحمد ، الذي كظم حزنه ز مات قهراً و حزناً وانتظاراً و ترك أرملة على حافة قبرها بلا أبناء؟ أين الزيتون و ظلاله والخس و اكواب الشاي (وعمر و محمد و ابتسامات البنات و السماء الفسيحة و صوت القطار و..؟)

حمل الحقيبتين و مشى قليلا فرأى شجيرات رمادية ساكنة تماماً ، مائلة حتى لتكاد أغصانها تلامس الأرض .

وصلها ، دار حولها ، أهذه الشجيرات ما بقى ؟

كلود قالت سأذهب معك لنعيش هناك في المخيم ، نجلس تحت الزيتون و نأكل الخس ، و تحلم جيداً وأنا أريدك . أنتم شعب مجنون و أنا مجنونة بكم أتعرفين حكايات شهرزاد .

لا أعرف الحكايات ، أعرف شهرزاد ، أنا سأمل كثيراً ما دمت لا تعرفين كيف تملأين ليالي بالمدهش و المثير .

دار حول الشجيرات : أنتن من بقى ؟ أين راح الشباب كلهم ، الذين أرادوا أن يكونوا ممثلين و لاعبي كرة القدم ، و شعراء ، وأساتذة؟

شد جذعة فهبط الوجع في عظام الفخذين و الأعصاب والشرايين ثم انتشر الوجع في المنبين و العنق و الرأس .

اقترب أولاد صغار ، أخذو يرددون .

- رن رن يا جرس

حول و اركب عالفرس.

أخذ يردد معهم، و هو يمسك بالأغصان المائلة : رن رن يا جرس حوّل و اركب عالفرس ...

كل شئ

قال الضابط للمساعد:

– إنه عنيد ، قوي الإرادة ، لقد حارب أيام الاستعمار مع الثوار ، وقاد التظاهرات ، و كتب المقالات في الصحف و نشر قصائد و قصصاً مدهشة مليئة بالقيم و المثل و الأفكار ، و الأحلام الكبيرة.

علّق المساعد:

– سيدي يبدو أنك معجب به.

– نعم ، لقد كنت أحد تلاميذه في المرحلة الثانوية ، علمّنا طيلة ثلاثة أعوام اللغة الغربية.

– لكنه تعاقد بعد أن تقدم في السن..

– أمثال هذا الرجل لا يتعاقدون ، في كل حال ، أحضره لي من غرفة الإنتظار .

خرج المساعد و عاد ، و خلفه رجل نحيل ، له عنق نحيل طويل ، و هو أيضاً طويل ، أو كان طويلاً و انحنى مع التقدم في السن . ينقل قدميه في حذائين كبيرين .

جسده في معطف أسود ثقيل ، رغم حرارة الطقس .

وقف الضابط ، بش . في وجهه مد له يده :

– أهلاًً أستاذ .

– أتعرفني يا بني

- نعم ، أنا –و تردد في نطق اسمه- كنت تلاميذك .
ألا تذكرني ؟ لقد علمتنا حب " المتنبي" و..
- إذن ، كنت تلميذي ؟
- نعم
- أين الورقة التي تطلبون من الذين يستنكرون الأحزاب التوقيع عليها ؟
-حزب واحد يا أستاذ ، حزب محدد ، ز انت لست متهماً بالضبط ، أحضرها بسرعة ..

قدم له الورقة:

قرأ الأستاذ الورقة.

استنك الحزب ..الهدام ، و اعلن ..

ثم أجرى تعديلاً طفيفاً ، وقع تحت السطور ، بخط مرتجف.

قرأ الضابط: أنا أستنكر ، و توقف عند :

أنا الموقع أدناه استنكر كل شئ.

نظر إلى وجه الأستاذ ، مد يده ليصافحه ، و لكن الأستاذ أدار ظهره و مضى يجر قدميه في الحذائين الثقيلين ، و جسده المتدعى داخل المعطف الأسود الثقيل يترنح و يوشك أن يسقط..

بيبسي

غرفة عارية .أسلاك كهربائية تنفلت من الجدران . بقع دم على الجدران .

كرسي واحد .

تطلع إلى وجهه و بسخرية :

–أهلاً ، أهلاً . من مقهى إلى مقهى . من مكتبة إلى مكتبة .

من جلوس أمام دكان إلى جلوس أمام دكان آخر . ولا تكف عن الثرثرة ، النقد و التحريض ، بينما البلد يخوض معركة مصيرية ، و يعد نفسه لحرب..

– مصيرية..

– تسخر، و مع ذلك أتحب البيبسي ، أم تشرب ماءً؟

– أشرب ماء

– عندك حدس ثم إنك وطني ، أنت تكره البيبسي لأنه أمريكي،أليس كذلك ؟

– ....

– تتحدث كثيراً عن الفنادق الفخمة و ..

– المعركة المصيرية الفخمة..

– مرح ، أنت مرح ، روحك قوية . أنت لا تخاف اليس كذلك ؟

أنصحك بشرب محتويات البيبسي هذه ، ألا تعجبك الزجاجة ؟ إنها كبيرة و لذيذة ، هكذا دعايتها.

فتح الباب ، و نادى اثنين . إنهما اثنان و لكن ليس كأي اثنين، إنهما كتلتان هائلتان .

أخذا يمزقان ملابسه ، ثم أجلساه علي عنق زجاجة البيبسي الفارغة ، فأطلق صرخة هائلة.

ضحك الضابط و هو يقول :

-يجب أن تتحمل أمريكا لقد تحملت شتائمك فاصمد ، إننا نضع الزجاجة في مؤخرتك رغم حاجة البلد لها ، ألا ترى أننا نضحي يا بطل بزجاجة كبيرة و لذيذة.

الكيس الأسود

لم يدر كيف وقع في الأسر ، لكنه وقع في الأسر ، و ها هو ذا في زنزانة منفردة ، من قضبان الزنزانة رأى سماء فلسطين ، سمع سقسقة عصافيرها ، رأى رؤوس أغصان أشجارها .

استدعوه للتحقيق ، شتموه بالعبرية ، هزوا جسده بالكهرباء ، و في يوم أدخلوه غرفة فارغة عارية ، دسوا رأسه في كيس أسود و انهالوا عليه لكماً و ضرباً من أمام و خلف و يمين و شمال. لم يعد يعرف من اين يتلقى اللكمات و الصفعات و الركلات . كلما داخ و ترنح رفعته ايدِ كثيرة بقوة و عنف . و من جديد ، في السواد المطلق ، ترنح و داخت عيناه ، فقد القدرة على التركيز ، و نسي تماما من هو، و أين هو، و لماذا يحدث كل الذي يحدث ؟

الكيس الأسود : هذا التعذيب لن ينساه أبداً و لذا عندما تم تبادل الأسرى ، و أفرج عنه مع أولئك الذين أفرج عنهم و لكونه أحد ضباط الاحتياط ، تحدث للمسئولين عن بشاعة التعذيب (الاسرائيلي) بالكيس الأسود.

في ذات يوم استدعي للتحقيق معه ، بتهمة الثرثرة و التشكيك في الحرب، فدسوا رأسه فسي كيس أسود و انهالو عليه ضرباً و لماً حتى نسي أين هو و من الذين يعذبونه ، و لماذا كل هذا الذي يحدث؟

عندما ألقوا به في الغرفة عند أقدام موقوفين غيره . استيقظ على صوت أحدهم يقول :

–أيام زمان لم يكونوا يعرفون التعذيب بالكيس الأسود ، لكنهم بعد أن اطلعوا على أساليب التعذيب في سجون العدو أدخلوا الكيس الأسود في أساليب التعذيب .

عندما أغمض عينيه لم يعرف ان كان اسير فسي فلسطين المحتلة ، أم في ..

وجوه

كلما رأيت امرأة تطلعت إلى عينيها ، تأملت وجهها . حقاً . الوجه مرآة النفس . بعد أن ارتاح للوجه انتقل لتأمل النفس الجديدة وتباينها مع نفوس كثيرة تأملتها و أثارت فضولي .

أقول الآن لنفسي أنا :

–هذه الفتاة أمامي هي أجمل وجه و نفس.

أدارت وجهها بحدة ، و لكنني واصلت الحديث مع نفسي كعادتي .

–إن هذه النفس هي امرأة وفرس ، أريد أن أسأل كل الناس : يا ناس أرأيتم صهيلاً في عيني امرأة؟

كالعادة ، لن يفهم الناس ما أقصد ، و سيسيئون الظن بي. ألم يقل بعضهم عني بأني مجنون ، و أني أهذي و أكلم نفسي ؟ ما العيب في

أن يكلم الإنسان نفسه؟ أليس هذا أفضل و أجدى من أن يكلم كثيرين ؟

فجأة أصابتني الحالة النادرة ، و كي أوضح أسألكم : ألم تروا امرأة توجعكم و تسبب لكم البكاء و الارتجاف و الوجد ؟ هذا ما حدث لي أكثر من أية مرة.

و المرأة أو الفتاة ، أو السيدة ، اقتربت مني قليلاً و سألتني :

-أتشكو من مرض في عينيك يا أيها السيد ؟ إن عينيك تدمعان كثيراً..

غادرت المكان ، ذهبت و اشتريت نظارة سوداء ، غطت عيني تماماً...

القطار

في محطة القطار جلس ينتظر القطار . إنه يقرأ أخبار الممثلين لأنهم برأيه يمثلون أشياء كثيرة. كان يردد دائماً : الممثلون لا يفرحون بملابسهم ، و هذا هو الفرق بين الممثل المشهور و الإنسان العادي ، و الناس يهتمون بملابس الممثلين — الفنانين و الفنانات — أكثر مما يهتمون بالممثلين و الممثلات أنفسهم.

إن ما يؤرقه هو : هل يمثل الفنانون و الفنانات بنفس الملابس أفلاماً مختلفة ، أو إذا كانوا لا يفعلون فماذا يفعلون بملابسهم ؟ في أمريكا باعوا الملابس الداخلية لمارلين مونرو ، لو كانت معي نقود كثيرة لاشتريت ملابس مارلين الداخلية شريطة أن تكون نظيفة ، في كل حال : أيامها لم يكن الإيدز قد انتشر في أمريكا و خارج أمريكا .

واحد صاحبي قال لي :بالنسبة للأمريكي يقسم العالم إلى قسمين: أمريكا و غير أمريكا.

إذا صرت مشهوراً سأحرق ملابسي قبل موتي أو سأطلب من أصدقاء موثوقين أن يحرقوها مباشرةًً بعد موتي .

إنني أضحك "أخاف أن يحرق أصدقائي جثتي و يبيعوا الملابس ".

ماذا لو عرض علي أن أكون ممثلاً عالمياًً؟ لو عرض على أن ألعب دوراً كبيراً في فيلم كبير بمبلغ كبير ، لا ، لا ، لن أقبل لأن الممثلات

الرائعات انتحرن ، أو قتلن في ظروف غامضة ، أو انتهين مدمنات وهذا ما سبب لي الكثير من العذاب .

اقترب مراقب المحطة و سأل :

– يا سيد ألا تريد أن تذهب إلى العاصمة ، هل غيرت رأيك ؟

انتفض السيد و سأل :

– ولماذا تسألني .

– لأن القطار وصل و أنت ملته بقراءة الجريدة.

وتطلع السيد في عيني مراقب المحطة ، رفع رأسه قليلاً و تكلم من فوق:

– قطار تافه غير لائق ، بطئ ،غير جدير بأمثالي .

ثم مشى مغادراً المحطة و هو لايعرف أين سيبيت ليلته .

وقف أمام الاستقبال في الفندق المتواضع :

– أريد غرفة بسرير فسيح لاثنين.

– و لكنك وحدك يا سيد .

ابتسم و نفخ من أنفه بسخرية :

–أنت تظن ذلك ، و لكنها حتماً ستجئ تماماً مثل كل ليلة ، وبدهائها المعهود ستغادر قبل أن أفتح عيني في الفجر ..

حكاية جدي

مات جدي قبل أن أولد ، مات جدي قبل أن يتزوج أبي و أمي، أي قبل أن أولد بسنوات لا تقل عن عشر.

قال لي أبي : جدك لم يحك حكاية وقعت لغيره ، مثلاً ، لم يكن يبدا حكايته : حدث هذا مع فلان أو علان ، لا ، جدك كان يقول وقع هذا لنا –يقصد هو و جماعته – أو كنت أسير ذات يوم ، أو عندما هاجمنّا قطاع الطرق ، أو عندما دخل الإنجليز و خرج الأتراك أو عندما في الحرب ، في بلاد الروم – يقصد أيام السفر برلك – و كنت أحارب و أنفخ البوق "بورزنجي" ، لا أدري لا أدري يا ولدي كيف أصف جدك لك .إنه يشبه ولدك الصغير غسان عندما يكبر ، أي و الله، حتى أن ابنك غسان – و هو يميل إلى القصر رغم أنه تخطى العاشرة – يمشي مشية جدك . كان جدك خفيف لحم الجسد ، و كان إذا ركض يسبق الفرس الأصلية ، أما إذا ضرب فإنه يهوى بدبسته على كتفي خصمه، ونادراً ما ضرب على الرأس ، لأن ضربة الرأس بدبسته الثقيلة لا بد ستكون قاتلة ، و كان جدك إذا ما ضرب ينسحب.

ذات يوم قال لي :

- اضرب و ابتعد ، الأحمق هو الذي ، بعد أن يضرب خصمه ، ينتظر في نفس المكان .

في ليالي الشتاء الثقيلة ، بعد أن تقدم جدك ، و صار في الستين ، وتخلى عن لا أعرف ماذا أقول ، ليس اللصوصية ، أو قطع الطرق ، لا ، إنما مداهمة البيوت التي عليها العين ، يعني البيوت التي فيها شئ يسرق ، كان يجلس في الحارة . هل تعرف ، ماذا يعني الحارة ؟ هززت رأسي ، فوضح أبي : يعني المقعد ، يعني المضافة.

في ليالي الشتاء الثقيلة ، كنا نوقد النار ، و نعد القهوة السادة ، فاهم يعني شو سادة ؟ أبت نعم ، القهوة بلا سكر . كان الرجال يحضرون و يمضون وقتهم معً في تجاذب الحديث و رواية القصص ، والحكايات ، فإذا كان جدك غائباً فإنه لا يمون للسهرة طعم.

كان جدك يقص الحكايات التي وقعت له و لأصحابه ، و هم قد ظلوا أصحابه الأوفياء حتى ماتوا واحد بعد الآخر . جدك يا ولدي عاش مئة و عشرة أعوام ، و مرض مرة واحدة هي مرضة الموت . كانت أيام مرضه قليلة . ما كان جدك يقول أنا ، أعوذ بالله من شر أنا، يعني ما كان يتباهى بنفسه ، ولا يدعّي ، لا يفشر أبداً.

كانت حكايته و قصصه تعّلم و تّلي ، و لهذا تناقلها الناس وأخذوا منها الحكمة و الوفاء و الطرافة .

آ..جدك كان يدخن ، كان يلف سيجارة رفيعة ، يشعلها بأناة ، و ينفخ دخانها من بين شفتيه خيطاً ناعماً مديداً.

نعم لم يكن يدخن السيجارة الإنجليزية ، تعرف يا ولدي : الإنجليز منعوا التدخين العربي الذي كان أهلنا يزرعونه في أرضهم ، وفرضوا تدخين علب السجائر التي أحضروها و ملأوا بها الأسواق .

جدك قال : لن أدخن ، توقف عن التدخين ، ليس لأنه خاف أن يحبسه الإنجليز — و قد حبسوا كثيرين — و ليس لأنه لم يجرؤ على زراعة دخانه في أرضه فقد كان بمقدوره أن يفعل ، و لكن لأنه لم يشأ أن يدخن السجائر الإنجليزية .

قال جدك : مرة كنت في الطريق إلى يافا ، و طبعاً كان يمشي على قدميه رغم وجود السيارات — و قد مرَّ جمَّال — هل تعرف ماذا يعني جمَّال ؟

- نعم يا أبي ، يعني الرجل الذي يحمل بضاعته على ظهر جمله .

- جدع يا ولدي . نعود لحكاية جدك:مرَّ بي جمَّال على جمله زبل ــ وكان يضرب جمله و يصرخ به : يلاَّ.

سألني الرجل وهو يتوقف عن ضرب جمله ويبطىء من سيره:

ساعم ، هل مر بك الجمالون؟ : قلت مروراً يابنى ، عاد وسألنى: هل استطيع اللحاق بهم لو أسرعت ؟ قلت : لا ياولدى قال الجمال وهو يهز راسه : عجيب ، لماذا ياعم ؟ لأنك إن مشيت براحتك ستلحق بهم عندئذ هز رأسه واستأنف ضرب مؤخرة جمله وابتعد الجمال وجمله حتى غابا عن عينى ، وبعد أن مشيت قرابة ساعة زمن رأيت أمامى الجمال أى

والله الجمال ، الجمل قد على حافة الطريق لقد مال الحمل عن ظهره ، فوقع الجمل المسكين مع الجمل وانكسرت رجله.

قلت : ياسامحك الله يارجل ، هاغ أنت تلحق بالذين سبقوك!

سألنى : ماذا أفعل ياعم ، قلت له : لم نسمع منى من قبل ، ومع ذلك فك الحمل عن جملك ، واذهب إلى القرى هناك من الناس مساعدتك لعلك تجد بينهم من يجبر ساق جملك ، وسأنصحك ياولدى : لا تضرب جملك فى المرة القادمة ، فأنت غشسم فى معرفة طباع الجمال ، إنها ياولدى شدسدة الاعتزاز وهى صورة، ولكن لصبرها حدوداً، فإذا ما ثار الجمل يؤذيك ، والجمل يعترف بالجميل ، بخدم صاحبه ، لكنه إن حقد ، فذات يوم ، بعد أن تكون قد نسيت ما فعلته معه ، سينتقم منك .. !

سألنى أبى : ماذا تعلمت ياولدى من هذه الحكاية ؟

قلت :

–الكثير يا أبى .

–أخذ أبى يلف سيجارة صغيرة ، سيجارة نحيلة ، ثم اشعل السيجارة ونفث دخاناً نحيلاً ، أغمض عينيه وما أن رأى ابنى غساناً يمر أمامنا بمشيته الغربية حتى ابتسم وقال / كأنه جدك ، إنه يعقد يديه وراء ظهره، ويدفع رأسه قليلاً أمامه ، ولا تخرج قدماه صوتاً وهو يمشى.

أطفأ أبى سيجارته وقال :

-كلما يصيبنى الحزن ، يخون صداقتى أحد ، أو التقيت متعجلاً يريد أن يصل بسرعة أعود وأتذكر واحدة من حكايات جدك.

كان جدك يردد : العين فارغة ، لا يشبعها الكثير ، ولكن حبة تراب نملؤها عند الموت ، من التراب جئنا وإلى التراب نعود ولدى.

ثم سألنى أبى : ماذا تريد أن تفعل بهذه المسجلة وهذه الأشرطة ؟

قلت :

-سنسجل حكايات جدى ، ثم أفرغ الأشرطة ، وبعدئذ أكتب تلك الحكايات والقصص.

عندما تطلع غسان إلأ شاشة التلفزيون رأى الفلسطينيين يشتبكون مع الجنود الصهاينة ، رأى غسان ، ورأينا عجوزاً يمشى ببطء، عاقداً يديه وراء ظهره ، وقد رفع رأسه أمامه طلع من زقاق ثم مر من أمام الجنود الذين كانوا يغطون رؤوسهم ووجوههم بالأقنعة ويعدون بنادقهم لإطلاق قذائف دخانية مسيلة للدموع.

قال غسان : إنه يشبه جدك ، أليس كذلك يا أبى ؟

سأله أبى : كيف عرفت ؟

قال غشان وهو لا يبعد نظراته عن شاشة التلفزيون :

-أبى وصف لى جده .. وأنت أيضاً حيكت لى يا جدى .

عندما صار العجوز على مقربة من الفتية والأطفال الفلسطينيين أمال رأسه قليلاً ، كأنما يعطى إشارة البدء فانقض الفتية والأطفال بالحجارة.

عندما اندفع جندى صهيونى وهرواته ترتفع فى الهواء ، وهو يوشك أن يهوى بها على رأس العجوز ، صرخ غسان :

-جدى ، جدى دير بالك ...

وأغمض أبى عينيه ، بدا وكأنه يغفو ، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة ، ثم تكلم بهدوء:

-غداً يأسافر ، لقد اطمأننت عليك وعلى أولادك.

سأله غسان :

-أين ستسافر ياجدى ، قلت إنك ستبقى معنا كثيراً

-قال أبى :

-يأسافر لا خبر جد والدك عنك ياغشان.

-ثم أخذ يغنى أغنيته الشجية القديمة بصوته الخشن الوقور :

جمال محملة وجمال بتعن.

وأيام المضن عالبال بتعن.

الخنازير

درست نقاط العبورباتجاه فلسطين بعناية فائقة ، هربت الأسلحة التى تحتاجها الدورية لتنفيذ مهمتها بعيداًعن نقاط المراقبة التى يرابط فيها الجنودعلى الجانب "العربى".

هناك فى الأأرض الفلسطينية المحتلة حقول ألغام ، وبنكلورات كهربائية تتفجر إذا ما مست ، وأشعة تحت حمراء فى الليل ، طائرات هيليوكبتر ، ودوريات محمولة فى عربات سريعة مجهزة بالرشاشات ، ودرب مفروش بالرمال الناعمة وبعرض ثلاثة أمتار لا يمكن تجاوزه إلا بترك آثار أقدام على العابرين .. إلخ .. إلخ !

حمل أفراد الدورية بنادقهم وقنابلهم ومطرات المياة والقليل من البسكويت لكل واحد.

فى اللحظة الأخيرة ، وهو يودعهم ، قال عثمان :

قد تحدث معكم مفاجاة غير متوقعة ، أنا لا أقصد أن نقاط المراقبة فى الجانب العربى ربما تكتشفكم دوريات العدو ، لأن هذا الأمر وارد ويجب أن لا يشكل مفاجأة لكم ، ولكن الخنازير هى المفاجأة..

وتوقف عثمان عن الكلام وهو يرى الدهشة على وجوه أفراد الدورية ، ثم أضاف :

–الخنازير البرية المتوحشة التى أقصدها تعيش فى المناطق التى ستعبروها، فى الأرض "الحرام" هذه الخنازير قد تهاجمكم ، فإذا ما حدث هذا الأمر

لا تطلقوا عليها النار لأنكم بهذا تنبهون إلى وجودكم ، وعندئذ لن تعرفوا من أى من الا تجاهين سيأتيكم الرصاص.

–علق القزعر:

–ربما م الاتجاهين ، من وراء زمن أمام !

استأنف عثمان كلامه :

–إذا ما واجهتكم الخنازير خذوا وضعية الاستعداد للقتال ، افتحوا ، و .. اشتبكوا مع الخنازير بالسلاح الأبيض ، هذه الخنازير تكره الفلسطينيين ، وهى ليست مع القضايا العادلة!

وتعانق وإياهم واحد وراقبهم وهو يتوارون بين الصخور ، ثم قفز برشاقة وبحذر وعيناه تراقبان كل شىء.

(٢)

ملاحظة هامة من الكاتب رشاد أبو شارو :

هذه القصة ، أو الواقعة ، أو الحكاية حقيقة جداً ، قد عرفتها من عثمان — هو ضابط برتية رائد — ومن القزعر وهو مقاتل قديم بدأ حياته القتالية شبلاً صغيراً حتى بلغ الثامنة عشرة.

أخبرنى الحكاية عثمان والقزعر، بعد أن نفد القزعر من حصاد الخنازير وأبلغ الرائد عثمان بأن الأخوة أفراد الدورية وقعوا فى الحصار ، وإن الخنازير تتكاثر ، وأفراد الدورية فى وضع يعب ..

طبعاً أفراد الدورية مازالوا حتى الآن تحيط بهم الخنازير المتوحشة ، وهو يستقبلون الإشارات فى جهاز اللاسلكى الكبير ولكنهم وفقاً للأوامر

المشددة ممنوعون من إرسال أية إشارة حتى لا تكشف الأجهزة المعادية موقعهم ..

أفراد الدورية لم يعتبروا أسرى ولاشهداء ، الاتصال انقطع بهم تماماً ، وحتى الآن لم تنجح عملية إنقاذهم ..

(٣)

يقول القزعر :

نفذت من حصار الخنازير وأخبرت الأخ الرائد عثمان بالذى حصل .. لقد أخذت الخنازير تدور حولنا وتدفع وجوهها الوسخة المنذة ، بينما نحن نحرك أمامها بالسدنكيات لنخيفها لقد سكلنا دائرة ، ولبثنا ساعات على هذه الحالة ، بعضنا تبول وهو واقف ، من حسن حظنا أن كل واحد منا يحمل مطرة مائة ، إلا لكنا هلكنا عطشنا.

أحد الخنازير لندفع فجأة إلى كومة أوساخ وأخذ يمرغ جسده ، ومن التغرة التى تركها ، وعندما أخذت الخنازسر الأخرى تتشاغل بالنظر إليه.. نفذت .

يضحك القرعز :

–ساعدنى جسدى الصغير ...

يضحك أيضاً :

–نفذت من الخنازير ، وفى مرات سابقة نجوت من الألغام لأن وزنى خفيف وخطواتى ، خطوات رشقية ..

ملاحظة للقراء:

لكم أن تتوقعوا ما حدث للدورية المحاصرة بالخنازير ..

لكم أ، تخمنوا أمور ، واحتمالات شتى ..

لكم أ، تقترحوا حلاً ما لا نقاذ أفراد الدورية .ولمساعدتكم فى تفهم الوضع يأضه أمامكم المعلومات القليلة التالية عن الخنازير هذه :

أحضر اليهود القادمون من أوروبا "الغربية والشرقية " ، والقادمون من أمريكا " خنازيرهم معهم ، وهذه الخنازير تلاقحت مع الخنازير البرية التى تعيش فى مناطق مهجورة ، ةفى مناطق الحدود الدو العربية (بعد أن ـشأت الحدود الدول ، خاصة بعد الاستقلالات ونكبة ٤٨ ...)

ومن التزاوج والتلاقح تناسلت أجيال متوحشة قبيحة من الخنازير معهم ، وهذه الخنازير (النسل الهجين الجديد) يتميز فضلاً عن توحشه بالرغبة الدائمة فى التمرغ بالوحل .

والقزعر يضيف :

... هذا النوع من الخنازير يسم رائحة الفلسطينيين الذين يعبرونالحدود،و ... إلى إلخ

-(يقول كلاماً من الصعب كتابته ونشره).

أولاد من قمح

وقف الولد فى منتصف الشارع ، إنه نحيل ، ليس نحيلاً تماماً ، ولكنه نحيل ، إنه متوسط الطول ، وهو حنطى اللون – والفلسطينيون غالباً خنطيو اللون – أى بلون القمح ناضج .

وقف الولد فى منتصف الشارع والجنود اختبأوا ولطوا فى وزايا الأوقة وجدران البيوت والمحال التجارية ، إنهم مثل رجال الفضاء – فى الأفلام الأمريكية – وهو يغطون أ،فوهم وعيونهم بالكمامات الواقية من الغاوات – التى يطلقونها على الفلسطينيين من قواذف خاصة – خشية أن يدوحواهم من الغاوات ، حدث أن داخ واحد منهم – داح غيره كثيرون – كاميرات التليفزيون نقلت حالته وهو يترنح – عندما تحمس ، أمام الكاميرات والصحفيين ولحق بأولاد الفلسطينيين الذين التقط أحدهم قذيفة الغز وألقاها عليه فداخ ، وترنح ، وصار كالخرقة.
وأخذ يمزق ملابسه عن صدره إلى أن لحق بع عدد من الجنود وانهمكوا فى محاولة مساعدته غلى التنفس ونقله لإنقاذ ، بينما الأولاد الفسطينيون يضحكون ويرسمون إشارة النصر ، ويتهيأون لإمطار الجنود بالحجارة.

اقترب الصحفى من الوالد الفلسيني ، والصحفى يحكى العربية بلكنة ويخلط المذكر والمؤنث:

–اسمع يا ولد تريد أن نصورك.

الولد يقول له :

-صور لا مانع لدى.

-اسمع ياولد ، تكلم هنا فى هذا الميكروفون.

والولد أشاح بوجهه عن الكاميرا ، وأخذ يراقب الجنود بحذر .

-غدا رأس السنة ،عام جديد ، ماذا تريد أن تقول ؟

تطلع الولد صوب الجنود ، وقال :-

-أن يرحلوا .

-إلى أين ؟!

-خذوهم ألم تأتوا بهم ؟ من عندكم جاءوا وإليكم يجب أن يعودوا.

-هل تعرف بابا ...

-أبى فى السجن ، عندهم .

-أقصد بابا نويل .

-أبو نبيل استشهد ، قتلوه ، أولئك قتلوه..

والصحفى يعلق

-غريب ، لا يعرف بابا نويل ، وغدا صباحاً ..

-ليس فى الصباح ، سيكون هنا فى الفجر .

-وهو أيضاً يأتى فى الفجر والأولاد نائمون.

-لا ، نحن لا ننام ، بعضنا ينام ، وبعضنا يسهر يحرس من ينام ، يجب أن نحذر هجوم المستوطنين.

وأشار الوالد إلى حيث أقام المستوطنون مستعمرات جديد ونهبوا أرضاً جديدة.

أخذ الجند يطلقون قذائف الغاز من القواذف القصيرة الغليظة ، والفلسطينيون هجموا يردون الجنود المندفعين.

والوالد قال للصحفى :

–انظر ، صناعة أمريكية ، جاءت قبل أسبوع.

والصحفى أخذ يترنج ، لأنه تنفس الغاز والأولاد أعطوه بصل ليشمه وفتحوا أزرار قمصيه وأخذوا يدلكو صدره.

وتناول بعضهم الكاميرا حتى لا تسقط من الصحفى ، وأسندوا ظهره إلى جدار أحد البيوت .

ورأى الصحفى ، رغم دموعه النازفة الغزيزة ، ولداً يقفز فى الهواء ويصرخ ، وسمع إطلاق رصاص .

–استشهد ، أصابوه.

–ولم يعرف الصحفى من الذى استشهد ، هل هو الوالد الذى صوره، أم غيره من الأولاد ، كيف يعرف وكلهم بلون القمح ، وكلهم يقفزون عالياً برشاقة !

المدن تطير إلى السماء

أم لبعد سيدة فلسطينية ستينية ، وزجها أبو العبد يقضى نهاره فى العناية بأشجاره وأرضه ، وابنه عبدالله يعمل فى الكويت ، ابنتها مريم تزوجت من ألاستاذ نصر وسافرت معه إلى الإمارت ،أما ابنها الأصغر سعيد فقد هرب من القرية إلى بلدة طولكرم ، وهناك إلى أريحا ، كيف عبر النهر لا تعرف ؟ ولكنه بعث برسالة شفوية — ي إخوتى عشنا وسمعنا بالرسالة الشفوية — مع أحد الطلاب العائدين من عمان ، إنه بخير.

أم العبد تجلس على العتبة أمام دارها ، وتنادى الأولاد والبنات ، تضع فى يد البنت عجينة خميرة ، وترش على رؤوس الأولاد قمحاً وملحاً ، وتحوطهم كلهم بالله واسم الله أم العبد تزور بيوت الجرحى ، ورغم وهن جسدها تذهب إلى المقبرة وتزور قبور القدامى والجدد.

نادت ولداً وبنتاً يمشيا معاً وسألتهما:

–أنت من يا بنت ؟

والبنت أجابت :

–أنا زينب الحاج خليل ، وأمى سعدية.

–أعرف أهلك ، أعرف أمك وأباك ، فى أى صف أنت؟

–فى الثالث إعدادى .

-كويس ، التعليم للبنت كويس ، ياريت كان فى مدارس أيام زمان كنت تعلمت.

والتفتت إلى الولد

-وأنت ؟

-أنا محمد

-اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد ، ابن من ؟

-والدى أبو فتحى اللحام ، وأمى ....

-عرفت ، عرفت ، أمازال والداك يكثر الشحم مع اللحم ؟

والولد والبنت ضحكا ، أو العبد دارت فمها الذى بلا أسنان وضحكت :

-والدى لم يعد يضع دهناً مع اللحم.

-أهو خائف من الناس ؟

-لا ، وحدة يفعل هذا ، يقول الدهن يضر الناس.

ضحكت أم العبد.

-ومنذ متى جاءه العقل الرحمانى؟!

وأمرت بدأت الانتفاضة:

-منذ البنت وهى تبتسم :

-هاتى يدك اليسرى ، اليمنى تحملين بها الحجارة.

ووضعت قطعة عجينة خميرة وطوت راحة البنت عليها ، ثم أمرت الولد:

-انحنى لارش الملح والقمح على أرسك ، أنك طويل رغم أنك مازلت ولداً.

قال مشاكساً بمرح:

-أنا لا أنحنى

ضحكت ، ونهضت مستندة على الحائط ، ثم رشت الملح والقمح على رأسه ، قالت لهما :

-ستنجبان أولاداً وبناتاً كثيرين والآن اذهبا.

ومشيا معاً فى الشارع .

وصلا إلى بابا بينهم ، أفلتت يدها ، سألته:

-أين أهلك ؟

-أختى معزوزة صاحبتك فى المظاهرة ، والدتى فى بيت الشهيد محمود، أخى عندهم فى السجن ، أبى فى حقلنا.

يعنى أنا وأنت سنكون فقط ؟ أنت مجنون !

-ألا تودين رؤية المفاجأة ؟

-تخدعنى !

-لا ، أنا لا أخدعك ، ألا تعرفين أنى أربى الحمام.

-أعرف ، هذا ليس مفاجأة.

-أنصحك أن تدفنى عجينة الخميرة عند عتبة بيتنا بسرعة ، وفعلاً حفرت بسرعة ودفنت عجينة الخميرة وهو تتمتم سألها:

-ماذا تقولين.

-إننى لا أقول ، إننى أطلب من الله شيئاً.

-عرفته!

وصعدوا الدرجارت القليلة إلى سطح الدار ، ثم أخرج الحمامات وهى تراقبه ، صار يربط علماً صغيراً فى رجل كل حمامة ويطلقها فى الفضاء قال لها :

انظرى ، هذه اسمها غزة ، وهذا علم فلسطين يرفرف ، وزينب رفعت رأسها وتابعت الحمامة التى رفرفت وطارت عالياً والعلم يرفرف.

وأطلق واحدة أخرى :

-هذه القدس .

-وطارت ورفرف العلم.

-سمع زينب ومحمد إطلاق رصاص ، أمسك محمد بيد زينب التى فيها بقايا الخميرة ، دخل بها إلى زقاق ثم أسرعا معاً باتجاه البيادر.

سألته :

-أتذكر أين أنتظرتنى أول مرة ؟

-عند زاوية الزقاق ، وراء بيتنا.

أضاف وهو يطلق حمامة .

-عندما يزفون العريس يرشون على رأسه الملح والقمح.

-وعندما تدخل العروس إلى بيت عريسها يضعون فوق الباب عجينة خميرة.

-زينب ، لماذا تحبيننى ؟

-لا أدرى ، لكننى مشتاقة لك دائما ، مرات أتمنى أن تكبر بسرعة لتتزوج ، وأنت لماذا تحبنى ؟ !

-لا أعرف ، ولكنى أرى وجهك فى دفاترى ،وفى صفحات كتبى ومرات أفكر بالركض إلى بيتكم والصباح بصوت عال : أنا أحب زينب وأريد أن آخذها معى إلى بيتنا.

-مجنون.

-مجنون زينب .

-ماذا لو رآنا والدى أو أمى أو .....

-أعرف بماذا ستجيبين....

وأخذ يضحك وضغط كثيراً على يدها.

-... ستقولين لا حقنا الجنود ، وركضنا فى الزوايب لنضللهم.

-أين المفاجأة التى قلت بأنك سترينى إياها؟

-هذه أريحا.

وطارت الحمامة ورفرت العلم.

-وهذه نابلس .. أنت رحلتك قريبة وسهلة.

-حيفا ، وهذه يافا ، هذه عكا ، هذه .. ، وهذه الناصره ، الخليل ، الرملة ، ورفرف الحمام عالياً ، ورفرفت الأعلام ، وسمعا إطلاق رصاص ، تطلعا فرأيا الجنود ينظرون إلى السماء ، ويطلقون نيران بنادقهم على الحمام والأأعلام والفضاء ولكن الحمام والأعلام انتشرت فى الفضاء.

صاحت زينب :

– محمد . أنا أحبك كثيراً ، يالله كم أحبك ،ومحمد أخذها بين يديه، فشعرت بالأأمان والفرح رغم تواصل إطلاق الرصاص.

وطوح بالقفص الذى كان فيه الحمام بعيداً و ... ركضا.

أغنية الوداع

استوقفته ، سمع صوتها ، لكنه لم يستوعب ما قالته أو سألته عنه ، تطلع إلى وجهها ، إلى عينيها ، إلى شعرها الفوضوى إنها تلبس بنطوناً للامتلاء ولكنه متناسق.

تبدو أميل للطول .

سألته وفى عينيها شىء من الدهشة :

–كيف يمكننى أن آخذ الطريق خارج المدينة ؟

تأملها ، وتكلم ببطء ، وشد جذعه قلبلاً ، أمسك جيداً بالكيس الورقى الممتلىء بعلب الطعام والفاكهة وزجاجة النبيذ.

–ولكن ، لماذا تريدين الطريق المؤدى إلى خارج المدينة ؟!

ارتسمت شبه ابتسامة على وجهها ، حركت ظهرها قليلاً تحت الحقيبة الخاكية المائلة للخضرة ، المشدودة إلى منكبيها ، وكأنما تقول له ألا ترى وعاد يسألها :

–حقاً ، لماذا تريدين ؟

قالت بشىء من التبرم :

–لأنه يتوجب على أن أواصل رحلتى إلى ..

أمال رأسه ، كما يفعل عادة ، وتأمل وجهها (وهو يحب تأمل الوجوه) وقال ببطء:

–اسمى ، اقترب المساء والجو الحار جداً الآن كما ترين وكما أرى أنا أيضاً.

–ولكن ربما أجد سيارة تحملنى ، أننى أرحل "أوتو ستوب".

–فرصتك فى أن تجدى سيارة فى الليل تكون شب معدومة وفى كل حال أنا أقترح..

–لا ، لا تقترح ، لن أذهب إلى فندق حتى ولو كان رخيصاً.

–تبدين نزقة ، رغم أنك سافرت كثيراً كما يبدو ، أدرت أن أقول ، أقصد أن أدعوك للمبيت عندى هذه الليلة ، أنا أعيش وحدى ، وأنا الآن أحمل فاكهة وخبزاً ونبيذاً وهذا يكفى لاثنين ، وصباحاً باكراً ستستأنفين رحلتك ماذا تقولين ؟

–أقول : موافقة .

ومضيا معاً ، هى تنظر إليه من تحت شعرها الفوضوى الذى يتأرجح مع اهتزاز جسدها ، وهو يمضى ناظراً أمامه ولكنه يختلس بين الفترة والأخرى نظرة سريعة إلى الجسد المنحنى ، الجسد الأنثوى ، الكائن المسافر الغريب الذى يمشى بجواره.

قال :

–أنا أسكن هنا.

وفقا أمام المصعد ثم اختفيا معاً فى داخله ، وصعد بهما ، هو يتطلع إلى وجهها فى المرآة ، وهى تتطلع إلى زجهه مباشرة ، فجأة ضحكا معاً ، ثم نظرا كل منهما فى عينى الآخر.

وقف المصعد ، انحنى قليلاً ، وهو يومىء لها أن تخرج قبله ثم تبعها، أخرج المفتاح الصغير من جيبه ، وأداره فى فقل الباب ، ثم دخل قبلها، ووقف ن وبحركة مسرحية ، طلب إليها أن تفضل .

خلعت حقيبتها عن ظهرها واخذت نفساً عميقاً ن ثم نظرت إلى أكوام الكتب والمجلات.

-ماذا تعمل ، أنت ؟

-باحث ، أنا باحث ، وأنت ؟

-مسافرة ، أنا مسافرة ،وأنت ؟

أجابته بطريقة إجابته ، وضحكت.

-ولكن عماذا تبحث ؟

-آ .. الجواب يطول ، ويجب أن أحضر لك شيئاً بارداً تشربينه ، بيره مثلاً ، ما رأيك؟

-جيد ...

وضع زجاجة البيرة وكأساً.

سألها وهو يطل عليها من المطبخ الصغير.

-هل قلقت للحظة ، عندما دعوتك للمجىء معى ؟

-ليس كثيراً ، لقد سافرت كثيراً ، تعلمت كيف اختار الناس الذين أتعامل معهم ،والذين لايثيرون الريبة ، ولكنك تبدو غريباً، أليس كذلك؟!

-كلنا غرباء يا عزيزتىّ

-ليس دائما

–نعم ليس دائما .

–هل تدرس ، أنت فيلسوف كاتب ، ماذا ؟

–ربما هذا وذاك ، حصلت على الدكتوراه فى الفلسفة ، ولكن أريد أن أدرس مزيداً..

–وأنا أريد أن أسافر ، أرغب فى التعرف على المدن التى لا أعرفها ، ولكنى لا أرتوى.

–المدن كثيرة ، الدنيا واسعة ، العمر قليل.

–لست هندياً .. ؟!

–لا !

–تبدو متوسطياً.

–ربما !

–أستطيع أن آخذ حماماً ؟

–بكل تأكيد .

فتح باب الحمام ، حضر لها منشفة نظيفة .

(جميل أن لا أتعشى وحدى ، أن أخرج من حالة الاكتاب)

وتنقل خفيفاً فى بيته الصغير بين الغرفة والصالون والمطبخ وسمع صوت الدوش ، وهمهمتها الصوتية بلا كلمات ، صوت السعادة والفرح بالماء والنظافة والإحساس بالجسد.

أعد الطاولة ، رفع الكتب ، نفض الغبار ، مد الغطاء النظيف الذى أحضره معه من عند الوالدة ، نشر رائحة الياسمين من الزجاجة التى

احتفظ بها منذ عودته "ليوم مناسب" ابتسم وهو يردد "أنا سيد بيت" ، ليس دائما ، أحياناً أحب أن أكون كذلك ، ان تجلس سيدتى، لا السيدة ما .. وأنا أجعلها ملكة بدأت شرقيتى ، أنا سيد رومانسى ، وحيد ، بعيد ، أتأمل الدنيّ أمى تعلق شهادة الدكتوراه فلسفة من السوريون فى بيتنا البعيد ، وأنا أغرق فى الأسئلة والتأمل و ...."

-أتكلم نفسك؟!

-الليلة لا ، الليلة نفسى تتكلم وحدها !

-ونظر إليها بدهشة ، لست هى نفس الفتاة ! إنها ترتدى فستاناً أنيقاً، شعرها ممشط أنيق ، آخاذ.

-هذا فستان للحظان الفرح ، أضعه فى حقيبتى مع حاجاتى ، إنه أسابى فى رحلاتى.

صب النبيذ فى كوبين فخاريين ، قال لها:

-إنهما من تراب بلادى !

وإضاف :

-التراب والشمس .

-أنت ذواق !

-علمتنى أمى أن العين هى التى تأكل أولاً وقبل كل شىء ، أما أبى فعلمنى أن مظهر الإنسان لا يدل على ما فى داخله !

-أنت ، من أين ؟!

-لا يهم ، المهم الآن لندع ال من أين ، وإلى أين ، اليس كذلك ؟!

وتذقت حافة الكوب الفخارى وخفتت الأضواء وتدفق صوت النأى شجياً وبعيداً وامتزج طعم الفخار والنبيذ والشفاه.

وقفت ، وقالت :

-هيا .

-ماذا ؟

-لترقص ، ألديك موسيقى للرقص.

وأصغت لدق الطبول الإفريقية وبدأ جسدها يهنز قليلاً ثم انطلق الجسدان ، ابتعدا.

ورآها تطير .. فلحق بها ، وأمسك بأطراف أصابعها فدارت حول نفسها ، له وبه ومعه.

فى الصباح رآها تتمدد بجواره ، إنها نائمة بعمق ، إنه صاح تماماً، تحركت ببطء ، فتحت عينيها كأنها أيقظتهما نظراته ، رمشت أهدابها رفعت رأسها ولمت شعرها الكستنائى (ترى أتعرف الكستناء) ؟ تذكر جلسات الأهل حول المدفأة والكستناء تنضج ببطء والأيدى تقشرها والأفواه تتلذذ بها مع الكلام والذكريات.

أخذت رأسه بين يديها.

-أشكرك يا ..

ثم هزت رأسها : ليس مهماً أن أعرف اسمك

نهضت ذهبت إلى الحمام ، بملابسها التى رآها به فى الشارع حقيبتها على ظهرها ، مشدودة إلى الكتفين ، قبلته ، وفتحت الباب

وخرجت ، ارتدى ملابسه ، اندفع من الباب بسرعة ، انتظر المصعد ، خيل إليه أن وقت انتظاره طال ضرب بقبضته على الباب ، هبط بالمصعد مع أناس هزوا رؤوسهم كأنما يحيونه ، إنهم من الجيران الذين يتبادل معهم تحيات بإيماءات من الرؤوس.

وقف على الرصيف ، نظر فى كل الاتجاهات فلم يرها ن مشى مسرعاً ، رآها تصعد سيارة ، وترسم ابتسامة وهى تلوى رأسها فى المقعد الخلفى وتنظر باتجاهة ، لوح لها ، حاول أن يناديها ، ولكنه لم يكن قد عرف اسمها .

ربما لا تكون ممرات المشاى كان الناتس يندفعون فى اتجاهات مختلفة ، ومشى هو ببطء ، وحيداً ، وهو يهمهم أغنية حزينة بلا كلمات واضحة محددة ، وبلحن ارتجلة وهو ينظر إلى لا شىء وقدماه تأخذانه إلى لا مكان ..

صدر للمؤلف

روايات :

١.أيام الحب والموت – طبعة أولى – دار العودة ١٩٧٣.

٢.البكاء على صدر الحبيب – طبعة أولى – دار العودة ١٩٧٤.

٣.العشاق – طبعة أولى – دائرة الإعلام والثقافة – فى م ت ف ١٩٧٧.

٤. الرب لم يسترح فى اليوم السابع – طبعة أولى – دار الحوار ١٩٧٠.

قصص قصيرة :

٥.ذكرى الأيام الماضية – طبعة أولى – دار الطليعة ١٩٧٠.

٦.بيت أخضر ذو سقف قرميدى – وزارة الإعلام – بغداد ١٩٧٤.

٧.الأشجار لا تنمو على الدفاتر – الإعلام الموحد ١٩٧٥.

٨.مهر البرارى – اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ١٩٧٧.

٩.بيتزا من اجل ذكرى مريم – اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ١٩٨١.

١٠. غريب فى المدينة - وكالة الصحافة العربية – القاهرة – ٢٠٠٣.

كتب للأطفال والفتيان:

١١. عطر الياسمين – دار المسيرة ١٩٧٩.

قصص

١٢. أحلام والحصان الأبيض – دار الآداب ١٩٨٠.

١٣. أرض العسل "رواية" — دار الحقائق ١٩٨٠.

١٤. كتابات:

١٥. ثورة فى عصر القرود (مقالات) — دار الحقائق ١٩٨١.

مسرح :

١٦. الغريب والسلطان — دار الحقاق ١٩٨٧.

١٧. آه يا بيروت — دار صلامبو ١٩٨٣.

١٨. بوابة حصار بيروت — تونس . د .ت .

- ترجمت رواية البكاء على صدر الحبيب إلى اللغة الروسية.
- ونشرت فى مجلة الآداب الأجنبية السوفياتية.
- ترجمت كثير من قصصه إلى عدة لغاتز
- منح الكاتب وسام يوليوس فرتشك من المنظمة العالمية للصحفيين لدورة أثناء حصار بيروت.
- صدرت هذه الأعمال الروائية والقصصية فى عدة طبعات.
- صدرت مجموعات القصص القصيرة فى مجلد واحد عن دار الأفق عام ١٩٨٢.

الفهرس